كميـــن

كميـــــن

مجموعـة قصصيـــة

محمـد عبدالمنعـــم

كـمـيـــــن

مجموعة قصصيـــة

اسم الكاتب: محمد عبدالمنعم
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٥٧١ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

(حَيْرَة)!

(نُشرت بمجموعة "المنفيون إلى جوار السحاب"
المكتبة العربية- معرض القاهرة للكتاب ٢٠١٨).

أحقًّا ما يراه أمامَهُ؛ ولا تلاعبَ؟... أيُعْقَلُ أن يكونَ حقيقةً ما لم يكن من الممكن تَخَيُلُهُ؟.. يراهم أمامه!... هنا، والآن؟.. بالتأكيد، ما يراه الآن هو عَبَثُ خياله. لا يوجد تفسيرٌ منطقي سوى هذا. أيكون الإجهادُ هو السبب؟... وهو الذي طالما اشْتَهَرَ بين أقرانهِ بالبركانِ؛ لفرطِ نشاطِهِ وحماستِهِ. أهو أوانُ الخمودِ؟.. ولماذا هذه الليلةُ بالذات؟.. أتكون إصابَتُه هي المَلُومَةَ؟.. وما تكون تلك في جسده المُكَوَّن أساساً من تجمع الإصابات و الندوب؟

تتصارع في عقله الأسئلة؛ وتراوغه الإجابات. ترتجف روحُه قلقاً؛ ليس بسبب الخوفِ، فإنهم لا يُرْهِبُونَهُ؛ بل إن الرعب كان دائما من نصيبِهم هم في كل مواجهاته معهم. إنما فقط هي الدهشة والتعجب مما يرى.. كيفَ ولِمَا الملبّدة بهما سماؤهُ؛ تَبْرُقانِ دونَ أن يُمْطِرُوا ما يَشْفي حَيْرَتُه. يَرَاهُمْ يتسللونَ؛ يَكْمُنُونَ؛ كالعقاربِ تَتَحَيَّنُ لحظتَهَا لِتُفْنِي كُلَّ اللحظات. ربما كان هذا هو الجانبُ الوحيدُ فيما يرى الذي يستطيع أن يُجْزِمَ بحقيقته؛ فَطَبِيعَتُهُمْ وأساليبُهُم طالما كانت له واضحةً جلية. لا غرابة ولا دهشة في ذلك. ككل تاريخِهِم دائمًا؛ يتسللون من الثغراتِ، ليعبثُوا في المؤخراتِ. لكن أن يراهم اليوم علي ضفته؛ فهو ما لا يستطيعُ فَهْمَهُ.

كل الضفافِ مُلْكُ يمينه؛ هو حارسها منذ آلاف السنين. لم يُقَصِّر؛ لم يَهُنْ عزمُه. ربما كان هوانُ من بيدهم الأمر وارتباكُهُم أضاعَ منه ضفَّة. سنينَ عدة؛ نسج فيها أعداؤُه أساطيرَهم وآلِهتَهُم علي أشلائِه هو ورِفاقِه. لكن، حتى في أعتى درجاتِ سطوتِهم؛ لم يستطيعوا حرمانه مما لم يجرئوا هم أنفُسُهُم عليه. لَمْ تَمْنَعْهُ هو ورِفَاقَهُ نيرانُهُم أن يسبحوا في المياه... يتمتعوا بقدسيتها؛ يعانقوا حورياتها التي كانت تُنْشِدُهُم النصرَ من قبل أن يولد. واليوم حينَ تَغَيَّرَت المعادلةُ علي يديه هو ورفاقِه، أو بمعنى أدق؛ عادت لتوازنها الصحيح.. يراهم أمامه هنا؛ علي الضفَّةِ الغربية؟

لقد اختلط عليه الأمر بالتأكيد. فقد كان يُقَاتِل منذ أيامٍ قلائلِ علي الضفة الأخرى.. ما زال يَذْكُرُتلك اللحظةِ و ينتشي بها. اللحظةُ التي سَطَرَ فيها هو ورفاقُه تاريخًا تهاوت أمامَهُ الملاحِمُ الإغريقية القديمة. اللحظة التي أشهدوا فيها العالمَ أجمعَ أنَّ الحقيقَةُ فقط عِنْدَه هو ورفاقه، وما عاداهم أوهام. حتى أتته الإصابة.. الإصابة التي ظن معالجوه، وقادَتُهُ، وربما أعداؤُهُ، أنها ستمنعه أن يُكْمِلَ ما بدأ. ألا يُدْرِكُونَ أن الروح في ثورتها و انطلاقها، لا تهتمُ بِقُيُودِ الجسد؟... وهو ما عَبَّرَ عنه بجملةٍ واحدة: ولو بنصف جسدٍ يا فندم سأحارب. وكم كانت تلك اللحظة قاسيةً عليه؛ اللحظة التي أُلْحِقَ فيها علي وحدة إدارية في الضفة الغربية... والقائد يربّت علي كتفه: لِمَصْلَحَتِك.

وَدَّ لو يصرخُ في وجهِه: أي مصلحةٍ وأي حمايةٍ؟... أُلْقِيْنَا في معاركٍ ليست لنا سنينَ عدة؛ ودون أي تخطيطٍ مسبقٍ تحت مسمى الحماية.. فوق رؤوسنا تهاوت منازلنا؛ هُجِّرْنا منها.

صدرت لنا الأوامرُ بالانسحابِ وإخلاءِ جميع الميادين بمبرر الحماية. أي حمايةٍ تلك التي تَتْرُكُ الرُّوحَ في اهتراءِ الخرق البالية؟ حمايةُ القبرِ الطيني الذي يضمها ويحويها!... لقد أثبتنا أنه لا سبيلَ للحمايةِ إلا بالقتالِ... القتالُ وحده. ود لو يلقي ما في جوفه دفعةً واحدة. لكنه اكتفى بأن أدى التحية العسكرية بقوة.

لا بد أن هذا هو التفسيرُ إذن. شوقُهُ للقتالِ الذي حُرِمَ منه جعله يتوهمهم هنا أمامه. شد قامته وتقدم، عملاقٌ خُطُوَاتُهُ عَرِجَةٌ؛ من أثرِ إصابتِهِ، ولربما كانت إصابَتُهُ النفسية أَشَدَّ تأثيرًا من الجسمانية. صاحَ: كلمةُ السَّرْ!... ربما كان الأمر في النهايةِ لا يعدو كونه بعضَ رفاقه؛ يتجوَّلونَ بالخطأِ في مربعِ حراسته. وسَرْعَانَ ما سَيُرَدِّدُونَ في آليةٍ كلمةَ الأمانِ التي لَقَّنَتْهُم إيَّاها القيادةُ. أو ربما كانوا رِفَاقَهُ الموتى؛ الذين طالما حاورهم؛ يستنطقهم؛ بعدَ كشفِ الحُجُبِ عن الأبصارِ إجاباتَ الأسئلةِ التي كانت ولا زالت تُؤَرِّقُهُ وتُؤَرِّقُهُم. حتى لو كانوا الأعداءَ فعلا؛ فهي فرصتُهُ لِيُرِيَهُمْ حقيقتَهُ.. أيا كان الأمرُ. فليهنأ الآن بالشهادةِ التي نالها عِدَّةَ مَرَّاتٍ من قبلُ؛ ولِيَتْرُكْ الأسئلةَ؛ كما كانت دائمًا... مُعَلَّقَة.

(المَعْرِضْ).

(نشرت بمجموعة على حافة السرد

دارجولدن بوك- معرض الكتاب ٢٠١٨).

أشرقت أمام عينيه، وسط صفوف الكتب... وكأنها نبتت من بين سطورها والأحبار... الحلم الأبدي الذي طالما راوغ خيال الشعراء، تجسد الآن أمامه... ريشة القدر البارعة خطتها فوق أفقه فجأة... كانت تقلب صفحات أحد الكتب باهتمام... انعقاد حاجبيها، والتماعة العين خلف نظارتها؛ تضافرا ليصبغا الوجه الندي الرائق برونق فوق رونقه... انهمار شعرها الذهبي فوق كتفيها وعلي منابت ثدييها، كأشعّة الشمس تعانق الهضاب في إشراقها... آلهة من الزمان البكر، بعثت لتعلن سيطرتها علي ممالك روحه... تطلق مراكب الدفء تسري في أوردته، تلمس أوتارا في داخله لم يعها من قبل؛ فيصدح كيانه بالنغمات.

اعتاد في السنوات الأخيرة على أجواء وفعاليات معرض الكتاب. ينقب درره ويعود حاملا كنوزه من الكتب.

- الجعان بيحلم بسوق العيش و انت مضيع فلوسك علي الكتب.

لا يمل والده من تكرار هذه الكلمات علي أذنيه:

- يا ابني؛ أي قرش زيادة أولى بيه الكشك اللي سلمته لنا الحكومة.

فيتنهد ويرد علي والده في صبر:

- يا والدي... الحمد لله أنا بشتغل دلوقتي، ومش مقصر في مصاريف البيت... الفلوس الزيادة دي للكتب.

ثم وهو يبتسم:

- اعتبرني بدخن.

يضرب الوالد كفه بالآخر متعجبا من جنون ولده:

- يا ربت!... يا ربتك كنت بتضيع فلوسك علي المزاج... كنت قلت راجل... وحقه زي بقية الرجالة.

يهز رأسه ويكمل في حنق:

- إنما أنا مش فاهم!... إيه مزاجك في قلبة الدماغ دي؟... وبعدين هو البيت ناقص خنقة لما تخنقه لنا أكتر بالكتب؟

يزفر ثم يعود فيسأله:

- وبعدين إنت دماغك أصلا ناقصة حشو؟... إيه يا ابني!... أمال لو كنت كملت تعليمك؛ كنت عملت فينا إيه؟

فيرد في مرارة:

- أنا كان ممكن أكمل كليتي بتفوق و انت أدرى.

- وكنت أجيب لك منين إن شاء الله؟!... الحق علي إني ما دخلتكش صنايع ولا تجاري زي إخواتك؟... إنما إنت اللي طلعت لي بحوار الكلية لما قسمت وسطي.

- خلاص سيبني بقى أحاول أرقي نفسي.

- ترقي نفسك بالفلوس... فاهمني؟... تقدر تقولي هتدفع مهر كتب؟... ولا فاكرهم هيدوك في الآخر شهادة علي الوشّ ده؟

- يا والدي... القيمة في الثقافة، وما لهاش علاقة بمستوى التعليم و...

يقاطعه في سخرية:

- لولولوليبي... زغرطي يا اللي ما انتيش غرمانة... ثقافة؟!... إوعى ياد تكون فاهم إن الكلمتين اللي بتبعبع بهم علي المدعوق الفيس ده، ولا شلة المقاطيع اللي بتسرح معاهم علي القهوة دول هيعملوا لك قيمة.

حوار طالما تكرر بنفس الألحان؛ وإن اختلفت الكلمات... لكنه لن ييأس، سيكمل حلمه إلى مداه... أن يرتقي بنفسه بالثقافة، ويرتقي بأفراد حيه. والبداية نواة مكتبة عامة في الحي بالجهود الذاتية. يشاركه مجهوداته بعض أصدقاء الحلم... قوبلوا بالسخرية والاستهزاء في البداية. لم يهتموا؛ المهم أن المياه بدأت تتحرك.. ببطء ربما، وسرعان ما تهدر... التفتت بعض الدوائر الثقافية إلى نشاطهم ودعمتهم... وربما كانت الدوائر الخاصة أنشط من الحكومية المترهلة، والتي اكتفت بتقرير مصور من عدة دقائق، يعرض علي هامش التبشير بإنجازات

الحكومة... لا يهم... الأهم أنه عرض، ولن يعدم أي حلم أن يجد المؤمنين به أبدا.

اليوم... على إثر دعوة من أحد أصدقاء الحلم... كان في إحدى دور النشر المشهورة... تأنق ما أمكنه... وإن لم يمنع نفسه لا إراديا من الانكماش وسط هذا البريق... نفس الشعور الذي يتملكه كلما دلف دور النشر العملاقة مثل هذه... اعتاد إن دخلها أن يجول سائحا، يرنو عناوين المؤلفات أو يطالع مضمونها... يخزنها في عقله؛ عساه يجد نسخا مصورة منها في درر سور الأزبكية المخبوءة، أو على الإنترنت. ثقافة مسروقة ربما، لكنه ما يناسب إمكاناته المادية حاليا.

كان يجول في أروقة الدار، حين لمحها... تحولت عيناه إلى عباد شمسها ما تحركت... حين كان يحاوره صديقه، يقدمه إلى بعض نجوم مجتمع الفكر والأدب المهتمين بنشاطه. كان يشعر بأنه يعيش تجربة الخروج من الجسد، يرد عليهم في آلية؛ لكن روحه معها في تجوالها... حتى اقتربت... صافحها صديقه وقدمها إليه: "الأديبة الناشئة، المبشرة بعقليتها الفذة الناقدة، وأسلوبها الشاعري الآسر... تخوض في الألغام والعراقيل بكل سلاسة، دون أن تخشى أي تابو"... وقدمه إليها ضاحكا: "البروليتاري المثقف، والذي لا يفوته واقعه أو عراقيله عن حلمه"... ثم تركهما... أو هو من انفصل عن واقعه في عينيها، فلم يبصر سواها... تصافحا... فرح حين علم بمعرفتها عن نشاطه وتحمسها له... دعته إلى أمسية لأحد الشعراء، فلبى معتليا عرش السعادة والهناء جوارها...

يشعر بأن آيات العشق في القصائد إنما نظمت لهما... قصيدة عن عاشقين تحابا، فتساما نجمين امتزجا في الفضاء. توهج بريقهما المضاعف فاكتسح كل بريق آخر، وبدد الظلام. لكن الناس على الأرض اشتكت من أن سطوعه يؤذي عيونهم التي اعتادت على الظلام؛ فتدخلت الآلهة وحكمت بانفصالهما ونفيهما إلى أقاصي الفضاء... نهاية محزنة لم تعجبه.

- ربما يراها البعض النهاية الو اقعية لأي حلم الآن.

قالتها مبتسمة... تطرق الحديث إلى حلمه فأسهب في شرحه، بشلال من الكلمات بهرته هو نفسه قبل أن تبهرها... حكى كيف يريد للأمر أن يتخطى حاجز المكتبة العامة إلى دار ثقافية للندوات والنقاشات الحرة، وربما مسرح صغير ملحق... حكى لها عن تحمس طلبة المدارس الصغار، عن المواهب المبهرة التي وجدها تنتظر فقط من يلقي الضوء عليها... سألته في اهتمام إن كان يكتب.

- لا أرى في نفسي أي موهبة أدبية... ربما بضع سطور أحاول نظمها في مقالات... فوجدت بعض الصدى.

- في جريدة ما؟

- بل على شبكات التواصل الاجتماعي.

- أعرف رئيس تحرير لمجلة ثقافية جديدة... بالتأكيد سيسعده هذا الحلم وهذه الحماسة.

افترقا على وعد باللقاء للتنسيق... فمضى في فضاءات من الانتشاء.

*****

- يا جدع ما تخوتناش... برضه ما فهمناش حاجة.
- ربما لو استمعت للحكاية إلى نهايتها.
- إحنا اللي جبنا آخرنا منك... ما تنجز يا اسطى... إيه اللي جابك معانا هنا؟
- أنا نفسي لا أعرف.

صوت خارج يعانق لفظة خارجة.

*****

حقا!... ماذا ينتظرون منه أن يقول؟... وعن ماذا يحكي؟... هو نفسه لا يفهم ما حدث... هل يحكي عن اللقاءات المتعددة التي جمعتهما فيما بعد؟... عن الحب الذي أورق رويدا بينهما؟... على الرغم من اختلاف الخلفيات الاجتماعية؛ جمعهما الحلم، والحب... تنامت أنشطة المركز الثقافي حتى صار قبلة لكل الاتجاهات؛ الأمر الذي لم يعجب البعض... أم يحكي عن استهانتهما بكل العراقيل والمعوقات؟ -وربما كان هذا هو خطأهما في النهاية-... بدءا من الأفواه التي تنفث غضبها والسباب مع دخان المباسم في المقاهي:

- ما هي لو كانت التربية كويسة من الأصل!

- هما عملوا إيه؟
- إحنا لسه هنستنى لما يعملوا؟... إحنا دورنا الوقاية من المصايب قبل ما تحصل.
- مش كفاية مسخرة الحفلات؟... وقال أنشطة فنية قال.
- أنا رنّيت بنتي علقة... عايزة تمثل ع المسرح الهانم!... الفاجرة!
- عفارم... إكسر للبنت ضلع...

أم يحكي عن التحقيقات الأمنية؟:

- يعني ما لقيتوش غير(...) يتكلم في الندوة؟... إنتو مش عارفين توجهاته؟... إنتو عايزين تخربوا البلد؟!

- يا فندم... هو قال آراءه... وفي آراء تانية ردت عليه.. دورنا نناقش...

-نقاش إيه يا فندي؟... نقاش يعني جدال.. وجدال يعني ربكة... زعزعة استقرار... مفهوم؟

أم يحكي عن محاولات الإغلاق التي تعرض لها المركز؟... وتحت مسميات متنافرة، تهلل لها الإعلام، ودشنها في النهاية تحت مسمى واحد: "المصلحة العامة".

أم يحكي عن مقتلها؟... أم عن اتهامه بقتلها؟... كيف؟... هو نفسه لا يعرف... ما يعرفه فقط؛ أن الحلم قد اغتيل، وهو الآن المدان باغتياله.

(مَحَطَّةٌ واحدة).

(نشرت بمجموعة أوركسترا

دار الدرويش- معرض القاهرة ٢٠١٨).

- لسه كتير علي محطة (...) حضرتك؟

نطقها بصوت ذابلٍ؛ تَشْعُرُ حينَ تَسْمَعُهُ بين لحظةٍ وأخرى؛ أنَّ صاحِبَهُ لنْ يُكْمِلَ اتِّصَالَ الحرفِ بتاليه.. وأنَّ رُوحَهُ ربما تخرجُ في نهايةِ أي كلمة. التفت إليه؛ فتفاجأ بِأَنَّ المُتَحَدِّثَ ليس طاعنًا في السِّنِ؛ كما تَوَهَّمَ مِنْ صَوْتِهِ.. لَكِنَّهُ رجلٌ ربما يَكْبُرُهُ بِخَمْسِ أو عَشْرِ سنواتٍ علي الأكثر. إنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ لمرحلة الأفول لِيَخْرُجَ مِنْهُ مِثْلُ هذا الصوت. قالها لنفسه... ثُمَّ نَفَضَ الفكرَة عن رأسِهِ؛ فالله وَحْدَهُ يَعْلَمُ ظروفَ مُحَدِّثِهِ الفَتِيّ جَسَدًا... الشَّائِخِ روحا.

هو نفسُهُ يَشْعُرُ أَنَّهُ تَغَضَّنَ وتَهَدَّمَ وهو في رَيْعَانِ شبابِهِ.. ظُرُوفُ عَمَلِهِ؛ حياتِهِ؛ سَعْيُهُ الدَّؤُوبَ لِيَحْفَظَ كرامتَهُ وكرامَةَ زَوجَتَهُ. محاولاتُهُ إشباعَ حاجَتِهِمْ المَادِّيةِ؛ والتي بالضرورةِ يَنْعَكِسُ عَجْزُهُ في ذلك علي إشباعِ حاجَتِهِمْ الرُّوحِيَّة.. وَلَدُهُ؛ الذي مَنَّى نَفْسَهُ حينَ كانَ لا يزالُ في عِلْمِ الغَيْبِ؛ بِكُلِّ الآمالِ التي رسمها له في خيالِهِ.. والآن بعدما جاء... يَشْعُرُ أنه لن يَصْمُد ليَرَاهُ يَنْمُو أمامَ نَاظِرَيْهِ. و أَقْسَى من ذلك عَلَيْهِ أن يَرَاهُ يَكْبُرَ ليعيشَ نَفْسَ عَالَمِهِ بأزماتِهِ وأمراضِهِ.

- ما تقلقش نفس المحطة اللي أنا نازل فيها.

- ع البركة.

جَمِيْلُ أَنْ يَجِدَ الفرصَةَ لِفِعْلِ الخيرِ؛ والأجملُ أَنْ يَجِدَ صُحْبَةً؛ عَسَى يَتِمُّ تبادلِ التعازي والمُوَاسَاةِ. لحظاتُ خاطفةُ رَبَّمَا؛ لكنها تُعِيْنُ على أَنْ نمضي في الحياةِ، كَمِثْلِ (الزومبي) رُبَّمَا؛ لكن المُهِمُ أَنَّنَا نمضي. حَاوَلَ أَنْ يَطْرُدَ مِنْ رأسِهِ أفكارَهُ المَهْزُومَةَ التِّي تَأْبَى إِلَّا أَنْ تَهْزِمَهُ.. رَبَّاه! أَيّ شَيْطَانٍ تَسَلَّطَ على نفسي في سنواتٍ قلائِلِ؛ سارقًا مِنْهَا كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعِيْنَهَا؛ وتَرَكَهَا عَارِيَةً بِلا أَيّ آمالٍ أو أحلامِ.

وصَل إلى المَحَطَّةِ؛ الْتَفَتَ إلى جَارِهِ فوجدُه قد غفا.. مَدَّ يَدَهُ ليُوقِظَهُ ثُمَّ توقف قبل أَنْ تَلُمِسَهُ؛ سحبها في تردد.. لَمْ يَدْر مَا السَّبَبْ؟ أهي الشفقةُ حينَ شَعَرَ أَنَّ رَجُلًا مِثْلَ هذا بحاجةٍ مَاسَّةٍ إلى أَنْ يَخْتَطِفَ من الزمنِ سويعاتٍ من الرَّاحةِ؟... أو أَنَّ شيطانَهُ العابثَ هو الذِّي أَصَرَّ علي لحظةٍ من السخريةِ؟ ورُبَمَا كانت موضوعًا يليقُ بصفحتِهِ علي الفيس بوك؟ كُلُّ ما يُدرِكُهُ أَنَّهُ نزل محطته وحيدًا؛ ولَمْ يستغرقْ مِنْهُ التفكيرُ في الأمرِ أكثرَ مِنْ بِضْعِ خُطُوَاتِ.

أمامه يومٌ شاقٌ مِنَ العملِ؛ العيادة الخارجية بالمُسْتَشْفَى؛ ثُمَّ نوبتجِيَّةِ القِسْمِ حتى الصباحِ... ميتتُهُ الصُّغْرَى!.. يا الله! العَمَلُ الذي عَشِقَهُ منذ الصغرِ بسذاجةِ طفلٍ كان يرى والدَهُ بالبالطو الأبيضِ؛ يمشي فينحني له الناسُ احتراما. يخفف ألمَ هذا، يعيد نضارَةَ وَجْهِ هذه.. تَمْسَحُ يَدُهُ كل الدموعِ فتدعو له كل القلوبِ. الصورةُ التي ظَلَّتْ حبيسةَ عقله.. يُزَيِّنُهَا بكل الأطرِ. حتى عندما اكتشف مَا اعْتَرَاهَا مِنْ تَشَوُّهٍ في أولِ لحظةٍ تَسَلَّمَ فيها عَمَلَهُ.. يحاول أن يؤدي عملَهُ كما كان يحلمُ دائمًا؛ فَتَلْطُمُهُ الكوابيسُ وَسَطَ

قهقهاتِهَا الساخرةِ.. ولا يملكُ إلا أَنْ يُحَاوِلَ.. صحيحٌ أَنَّهُ يَعِي مَا يَعْتَرِيْهِ هو نفسُهُ مِنْ ذَاتِ التَشَوُّهِ؛ لَكِنَّهُ يأملُ أَنْ يهتدي يومًا مَا للطِفْلِ وللصُورَةِ.

بنِصْفِ عقلٍ وروحٍ أمضي روتينَ العيادةِ المُعْتَادِ. الصيدليةُ لا تحتوي إلا علي الشحيحِ مَن الأدويةِ؛ فَيَلْعَبُ بِهَا لُعْبَةِ الثَّلاثِ ورقاتِ مع المرضى.. فليسَ كُلُهُم باستطاعتهِ شراءَ الدَّوَاءِ الحَقِيقِيّ من الخارجِ.. وهذا مريضٌ على تذكرةِ العيادَةِ فقط. لا يعاني أَيَّةَ عِلَّةٍ، إلَّا أَنَّهُ مُصَمِّمٌ علي أَنْ يَأْخُذَ عَدَدَ الأصنافِ كاملًا كما تَنُصُّ لوائحُ الوزارةِ.. لا يهمُ طبيعةَ الدَّوَاءِ المُهُمُّ العَدَدْ.. رغمِ غضبهِ؛ إلَّا أَنَّهُ أحيانًا يُفَكِّرُ أَنَّهَا مُعَادَلَةٌ عَادِلَة؛ فالمريضُ دَفَعَ أقَلَّ القليلِ الذّي يَمْلِكُهُ؛ فبالتالي؛ مِنْ حَقِّهِ أنْ يأخذَ أقلَّ القليلِ الذي تَمْلُكُهُ المستشفى.

مِنَ العيادةِ للقسمِ.. مِنْ طقطوقةٍ إلى سِيمْفُونِيَّةٍ؛ تَرِنُّ في أذنهِ نفسُ نغماتِ العبثِ.. لَكِنْ فِي القِسْمِ أحيانًا تهدأُ رُوحُهُ يُخَفِفُ شَكْوَى هذا؛ يَسْمَعُ دعاءَ هذهِ لَهُ.. بِضْعُ عَلَاقَاتٍ متبخرةٍ تحافظُ على بقايا الصورةِ في خيالِهِ؛ رغم بلطجةِ بعضِ المتآمرينَ علي حُلْمِهِ أحيانًا كثيرةٍ.. مرضي؛ مرافقين؛ تمريض؛ زملاء؛ مديرين؛ وأحيانا نفسه.

- المريض(...) تعيش إنت.

أَيُّ مريضٍ هذا؟... تَصَفَحَّ المَلَفَّ متذكرًا... ياه!.. أيعقلُ أن ينساهُ بهذَه السرعةِ؟.. طفلٌ مصابٌ بمرضٍ في مراحلهِ المتأخرةِ.. كان ولا زال ينبهرُ بِرُوحِهِ النَقِيَّةِ.. الطفلُ الذي رغم العوائقِ؛ أَصَرَّ أَنْ يعيشَ أحلامَهُ.. كيفَ نَسِيَهُ سريعًا وقد كان دوما يرى الغَدَ في

عينيهِ؟... أَنَسِيَ كيفَ تَأَثَّرَ حِيْنَ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ والدَهُ منذ أن طلق أُمّه؟... وكيف كان الطفلُ يرفضُ مقتَ أُمِّهِ كلما حَدَّثَتْهُ عَنْ والدِهِ؟... أَنَسِيَ أَنَّهُ هو نَفْسُهُ كَرِهَ هذا الوالدَ دونَ أَنْ يراه؟... أَيُّ أَبٍ هذا الذي يُلْقِي هذا الحُلْمَ المَلَائِكِيّ كَنَفَايَةٍ في الطريقِ؛ دُونَ أَيّ اعتبارٍ؟ أَنَسِيَ فرحَةَ الطِّفْلِ بالأمسِ حينَ كانَ يُخْبِرُهُ بأنَّ والدَهُ سيأتي له اليومَ ليراهُ؟

زَفَرَ بعضًا من براكينِ صدرِهِ.. نَفَضَ رأسَهُ مُجَدَّدًا.. حِكَايَةُ مِثْلُ كلِّ الحكاياتِ التي رآها مِرَارًا.. في الواقعِ؛ وفي الميديا.. ما الفارقُ الذي تُمَثِّلُهُ؟ عظةٌ جديدةٌ! وهل أفادت السابقةُ؟... الأحلامُ مصيرُهَا الموتُ في النهايةِ... ولا يَبْقَى إلا جَلَّادِيهَا؛ حُرَّاسُ العالمِ الآخرِ علي اختلافِ مراكزِهِمْ؛ وموا قعِهِمْ في الحياةِ.. توقف أمامَ بابِ غُرْفَةِ الطِّفْلِ.. دفعَ البابَ دونَ تَرَدُّدٍ؛ رُبّمَا أرادَ أَنْ يلقي نظرةً أخيرةً عليهِ؛ ليتأكد من أَنَّهُ كانَ حقيقةً بالفعلِ؛ لا مِنْ نَسْجِ خيالِهِ. دخلَ فوجدَ جسدَ رجلٍ تَوَقَّفَ أنْ يكونَ فَتِيًّا؛ يبكي بمرارةٍ علي جُثَّةِ الطِّفْلِ. رَفَعَ إليهِ عينينِ مجوفتينِ؛ خاليتينِ إلا من الدموعِ؛ مرددا بكل حسرةٍ:

محطة واحدة بس؛... فاتتني محطة واحدة.

(يا ابني)

(نشرت بمجموعة "رتوش إبداعية"
دار إبداع للجميع للنشر الإليكتروني- معرض القاهرة ٢٠١٨).

- يا ابني... يا وجع في القلب ما بيطيب... يا جمرة في الحشا نارها ما بتغيب... يا ابني...

بشجن النايات في صوتها المبحوح، تنوح... تبتر ما بين الحرف والآخر بالنَّهْنَهات... يداها ماتتا علي جانبي رأسها الحاسر... يميلان إذ تميل... تنشِج في نهاية نواحها... تئن كأوتار الكمان مسها قوس العازف في ثقل وارتجاف... تنوح مجددا:

- يا ابني...

تسارع النسوة المتشحات بالسواد حولها لتهدئتها. ما بين تربيت علي الكتفين... أو من تقبيل رأسها الدامعة العينين... تتوالى عليها الأصوات مكتومة الأحرف؛ تنازع لتظهر وسط الشهقات...

- خلاص يا امّه... مش كده.
- ما تعمليش في نفسك كده يا حاجة... صحتك.
- شدي حيلك.

تعود الأنشودة من جديد... لا تتوقف.. منذ اهتزت القرية الهادئة بالخبر الأليم في التلفاز... منذ فجعت عدة دور في خيرة شبابها، حين ذكرت أسماء الضحايا في الحادث الكارثي... مصاب فادح للجميع، لكن ليس في فداحة مصابها. كان فقيدها هو ابنها المتبقي من أولادها من زوجها الراحل.. فقدتهم جميعا في حوادث متفرقة مشابهة.. فأكبر الجميع مصيبتها.

لم يكن أحد يصدق ما سمع. هام الرجال في شوارع القرية الترابية الضيقة بترنح السكارى. الذهول يشل العقول والألسنة... منهم من ذهل حتى عن ارتداء جلباب فوق ثيابه الداخلية المهترئة، قبل نزوله العاجل... ونظرا لضعف شبكات الاتصال في القرية؛ استأجر بعضهم في عجالة سيارة للذهاب إلى البندر... ليعودوا مؤكدين الخبر... ستصل الجثامين في الصباح، لتشيع بالطريقة اللائقة.

التوتر يغلف سماء الرجال، مع سحائب دخان السجائر... بعضهم أقعى القرفصاء، يحيط بيديه رأسه المطرق الذاهل عما حوله في عوالمه الخاصة... منهم من انزوى في أحد الأركان يقرأ في مصحف صغير في يديه وهو يبكي... آخرون يتهامسون في عصبية يتناقشون في الترتيبات.. من غسل، صوان، وخلافه... حتى أعلن عن وصول الجثامين... ليعلو نواح النساء، وصرخات الرجال أن يصمتن... والآن صفوف من الأفئدة المكلومة... تتقدم في صمت بخطوات ثقيلة، لتتسلم الجثث، في صباح رمادي كئيب، ثقيل الهواء هو الآخر... وكأنه يأبى إلا وأن يشارك في العزاء.

*****

- يا ابني...

يخترق نحيبها الحجرة المخصصة لغسل وتكفين فقيدها، فيزيد توتر الرجال... والمغسل المتطوع، الشاب ذو اللحية الخفيفة، يحاول أن يؤدي عمله في سرعة وإتقان. يريق الماء علي العورة ثم يواريها... يدور بالماء على الفخذ الأيمن فالأيسر... يرفع الجذع يغسله وهو يضغط علي البطن بذراعه بتعصير خفيف... يريق الماء، حتى إذا رفع الذراع ألقاه فجأة كالمدوغ وهو يتراجع... لم يجب دهشة الرجال من حوله إلا بسبابة مرتجفة تشير إلى الجثة، وهو يتمتم بكلمات استعصى على الرجال استيعابها... فحصوا الذراع سريعا... ليظهر لهم ما بدا وكأنه.. آثار وشم... لصليب!

*****

- يا ابني...

نظر الرجال إلى بعضهم البعض في حيرة مجنونة صاح أحدهم:

- إزاي ده؟!
- معقول نكون استلمنا الجثة بالغلط؟!
- المصيبة الجثث كلها كانت متشوهة.
- لأ... مش ممكن... ده كان عليه هدوم المرحوم... ده غير إن بطاقته كانت في جيبه.

- أومال معناته إيه الكلام ده؟!... أنا هتجنن!

رفع أحد الرجال الذراع في تفحص وهو يتمتم:

- ما يمكن يكون ده أثر جرح.. ولا...

لم يجد ما يتمم به عبارته... التفت أكبرهم سنا إلى المغسل الشاب يسأله:

- رأيك يا مولانا؟!

رد في لهجة قاطعة:

- صليب... أنا مش هتوه عنه.

ضرب أحد الرجال كفا بالآخر... أشار أكبرهم سنا لآخر:

- جري علي دار أبو مينا، أكيد الجثة اتبدلت مع جثة ابنه بالغلط... بالعجل قوام... إتلحْلح... خلينا نلحق المصيبة دي.

خيم الوجوم والصمت على الرجال... لم يقطعه إلا ضربات الأكف ببعضها البعض من وقت لآخر... أو:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

حتى عاد إليهم الرجل وهو يلهث... يخبرهم في جزع:

- أبو مينا.. مش مصدق حرف م الكلام ده... وبيقول إنهم ما لاحظوش أي حاجة غريبة علي جثة ابنه... ده غير إنه اتعصب و افتكرنا بنتمسخر عليه.
- ما داهية لتكون الجثة اتبدلت مع حد من بلد تانية؟
- -معقول..؟!
- إنتو ما وعيتوش الضحايا كانوا قد إيه؟
- طب والعمل دلوقتي؟
- ما فيش غير إننا نبلغ النقطة.

*****

- و بعدين يا جدي؟... حصل إيه؟

سأل الشاب جده العجوز فتنهد وهو يجيب:

- ولا قبلين... المرحومة ما استحملتش.. دفناها هي مع اللي اتدفنوا يومها... وخدنا عزاها هي بدل ابنها... وسبحان من له الدوام.
- طب والجثة؟
- استلمتها الحكومة.
- وجثة ابنها؟

هز العجوز كتفيه:

- ولا حد يعرف... لا الحكومة ردت علينا... ولا إحنا بقينا بنسأل.

(كمين).

هنا؛ يُعْصَى الجَسَدُ، إنْ يَطْلُبُ الراحَةَ فلتَجْلِدْهُ. اجْعَلْهُ عبدًا لك لا العكس. هكذا عَلَّمُوه. سِلَاحُكَ بَعْضٌ مِنْكَ، يَتَصِّلُ مُبَاشَرة بأعصابك، و أنت بَعْضُ مِنْ قَائِدِكَ، وهكذا؛ حتى نَصِلَ إلى العقل الأعلى. هكذا دَرَّبُوه.. لا إصْغَاءَ للعَقْلِ؛ إلّا في شِقِّ رَدِّ الفِعْل المُنْعَكِسِ، ففي هذا الزَّمَكَانِ المُشْتَعِلِ؛ لا وقتَ لِنَظَرِ الأُمُور، لا مجال لحديث النَّفْسِ. فَهُنا؛ لكي تَبْقَي الرُّوحُ لا بد لها مِنْ أنْ تكون خرساء. هكذا كانوا يعلمونه.

يُرابط في موقعه المعتاد. حَوَاسُّهُ تُفَتِّشُ الأفقَ حَوْلَهُ؛ بحثا عن أي اختلافٍ في الصورة. هكذا عَلَّمَتْهُ خِبْرَتُه. إنَّ أقل اختلاف هنا في نسائم الهواء؛ حبات الرمال؛ حشائش الأرضِ الجرداء؛ أو حتى في أصوات الهوام.. لا يعني إلَّا النَذِيْرَ بأسوأ ما يمكن تخيله. لحظات بطيئة تَمُر بأثمان باهظة.. رفاقه الذين لم يَعْرِفْهُم قَبْلَ هذه اللَّحْظَةِ؛ لم يَفْتَقِدْهُم إلا في هذه اللحظة.. هنا لا فارق بين الموت والحياة إلا لحظة.

***

يَعْدُو دَاخِلَ ثَكْنَتِهِ العَسْكَرِيَّةِ؛ وخَلْفَه على الأرضِ تَتَشَكَّلُ لوحاتٌ سِيرياليةٌ مِنَ الدماءِ المتناثرةِ من جروحهِ... لكنه لا يبالي. يَحْمِلُ على كتفيهِ جسدًا بدأ تَيَبُّسُه منذ بعضِ الوقت، صارخا: يا ولاد الـ(...). هنا يَفْرِضُ التَوَتُّرُ سُلطتَهُ علي العيونِ؛ الأجسادِ؛ والعقول. في هذه اللحظاتِ لا أحد يبالى بالشكليات.. لا يَهُمُّ إنْ أدى التحيةَ العسكريةِ للموجودين، أو أنْ تُؤَدَّى له.

هنا لا يَقْمَعُ الصمتَ إلا العيون.. عيون تُشَكِّلُ لوحاتٍ مِنَ الغضبِ؛ الوجلِ؛ الخشوع.. تتنافرُ مشاعرُها ولَكِنْ ككل الأقطابِ المُتَنَافِرَةِ تتجاذبُ جَميعُها.. تتعلق بمن بيديه تقديمُ الإسعافات، يُحاوِلُ قَدْرَ استطاعته، وفي النهاية تُنْشِدُهُم عُيُونُه أهازيجَ المرارةِ والحسرة.

لَمْ يَعُدْ أحدٌ يبالي أنْ يسألَ عَمَّا حَدَثْ.. فهي ليست أوَّلَ مَرَّة، ويبدو أنَّها لنْ تَكُونَ الأخيرة. لمْ تَعُدْ تَهُمُّ الأسماءُ؛ الملامحُ؛ الخلفياتُ الاجتماعيةِ أو الثقافية. ففي عيون كُلِّ الجُثَثِ؛ قَبْلَ أنْ يُغلقها. يسطعُ نحيبُ أمٍّ عجوز؛ بُكاءُ عروسٍ شابة؛ آباءٌ قعيدةَ سَرعانَ ما تتحولُ إلى طَريحَة؛ أراضٍ تبورُ؛ تِجَارَاتٌ تكسدُ؛ وِرَشٌ تَهْدُرُ ماكيناتها بالصمتِ وبالعدم.

وكما اعتادَ في كلِّ مرةٍ؛ يَلُفُّ الجَسَدَ بحرص في العَلَمِ.. العَلَمُ الذي رغم ما تشرَّبَ من الدماءِ؛ لا تزالُ ملامحهُ أمامَ عينيهِ صامدةً لا لبسَ فيها ولا تشوه. يؤدي الطقسَ بنفسِ الاحترامِ في كل مرة. يؤدي التحية العسكرية بكل كيانه.. ويَدْفِنُ الجثةَ بجوارِ سابقيها في روحهِ، لتُعِينه علي ما يَنْبُتُ في قلبهِ من الأشواك.. فهنا تعلم أن يستمد الحياة من الشهداء.. يَلمس أجسادَهم فتصدحُ بالأشعارِ والأنغام.. كلِّ معاني الحقيقةِ، وليست تللك التي تُذاعُ وسطَ الر اقصات.. هنا كمثل كلِّ مرةٌ وحتى بعد أن تَتَحَقَّق؛ يتمنى أن يكون هو من يحويهِ العلمُ في المرة القادمة.

******

تصفو روحه بعضَ الشيء؛ ويَغْسِلُهَا مَشْهَدُ بلدتهِ كلَّ إجازةٍ يعود إليها.. بقايا الهواءِ الذي تَنَفَّسُهُ نقيا في صغره.. الأشجارِ التي طالما صَفَقَّتْ له حِينِ امتلكتْ أحلامهُ الريشةَ، يرسمُ بها علي السماءِ، ويُلَوِّنُ الآفاقَ.. بقايا الحُبِّ والأمانِ، سلامِ النفوسِ وترابطها.. أحضانِ الأهلِ، ألعابِ الشبابِ.. والمزاحِ البريء دائمًا؛ الخبيثِ أحيانا.. بقايا يُحاولُ جاهدًا أنْ يَتمَسَّكَ بها ليبقى.

يعود مثل كُلِّ مرة؛ يستقبلهُ بعضِ الأهلِ بالأحضانِ مُهَنِّئِينَ بالنجاة.. والبعضُ الآخرُ بالتجافي. العيونُ التي كانتْ تُكِنُّ لَهُ دائمًا كُلَّ الودِّ والاحترام.. الآن تَشَتَّتْ مَا بينَ الرَّهْبَةِ والمَقْت. يُجَالِسُ رِفَاقَ صباه كَمَا اعتادوا كُلَّ ليلة، لَكِنَّ الضحكات الصافية المجلجلة، اسْتُبْدِلَتْ اليومَ بهمساتٍ مُضْطَرِبَةٍ أحيانًا، وصرخاتٍ جامحةٍ أحيانًا أُخْرى لا يُلْجِمْهَا تَعَقُّلٌ أو أدب.

بَعْدَ السَّلامات... يُسألُ عَنْ مَنْ مات... فَيَخُوضُونَ في مَدَى استحقاقِ النِّهايات. مِنْهُم مَنْ يُبْدي الحزنَ على استحياء، ومَنْ يَجْهَرُ بالشَّمَاتةِ والاستهزاء. قيل له: أَتُنْكِرُ أَنَّهُ كانَ هناكَ مدنيونَ قُتِلُوا بالخطأ؟... وقَبْلَ أَنْ يرد... تَجْلِدُهُم أَلْسِنَةُ الآخرين: يَسْتَحِقُّون.. لِمَ ذهبوا إلى هذا الأتونِ المشتعلِ؟... قِيْلَ: أعمالهم؛ منازلهم؛ حياتهم. فيأتي الرد سريعًا: فَلْيَتْرُكُوها؛ وَلْيَتِمَّ تهجيرُهم حتى تَتَمَيَّزَ الصورةُ، وتُصْبِحُ شديدةَ الوضوحِ. وَلِيُخْلي مَيدانُ المعركةِ إلَّا مِنَ الشُرَفَاءِ والجبناء.. حُمَاةَ الوطنِ والمُجْرمين. فهذا فقط هو ما تُدْرِكُهُ عقولُنا.

حاول أَنْ يُحدثهم كما تَعَوَّدَ دائمًا.. بالعَقْلِ، بالبحثِ عَنْ نِقَاطِ تلاقٍ، أو حتى نقاطٍ مُحَدَّدة حتى يَتَسَنَّى للنقاشِ أن يبدأ.. فَتُخْرِسُهُ نظراتُ الشَّكِ من جميعِ الأطراف.. رَبَّاه! أَفِي لَحْظَةٍ يُهيلون الطِّينَ علي كُلَّ الأيامِ التي امْتَزَجَتْ فيها أرواحُهم معًا؟ أيتغاضونَ بِلَا نَدَمٍ عَمَّا لاقوا معَ بعضِهِمْ البعضَ مِنْ أزماتٍ؛ وكُلٌّ للأخَرِ الأرضُ التي يُمِدُّ فيها جذورَهُ.. بَعْضُهُم لبعضٍ المياهُ التي تجري في أخاديدِهِمْ، فَيُوْرِقُ البُستَان. الآن... طَوَاهُ النِّسْيَان؟ لَمْ يَعُدْ يُبالي بالحديثِ وتَرَنُّحِهِ. يستمعُ ويَرُدُّ في ذِهْنِهِ فقطْ. ويُسَائِلُ نَفْسَهُ: أهو قابَ قوسينِ أو أدنى مِنَ الجنون؟ أَمْ دنا فتدلى إلى أرقى مَرَاتِبِ العقل؟

يا لهؤلاءِ المخابيلِ! ألا يُدركونَ أنَّ في المعاركِ؛ لا يُسْتَجْوَبُ الضَّحَايا؟.. لا يُهَمُّ في أي معركةٍ تُقْتَلُ.. معركةِ تحريرِ أرضٍ، أم تحريرِ عقلٍ وروح.. لا فرق بين شهيدٍ تَصَدَّرَ المَشْهَدَ في لحظةٍ ما.. وآخَرُ طوتهُ نفس اللحظةِ رُبَّمَا، أو لحظةٌ أخرى. هُمْ ضَحُّوا بأرواحِهِم؛ لم يسألونا المقابلَ ولا حتى كلمةَ شُكْرٍ. ارْتَضُوا أَنْ يَكُونوا وقودَ الحياةِ لساكني المُؤَخِرَات.. ولَكِنَّنَا نُصِرُّ عَلَي أنْ نكافأهم بأنْ نُشَوِهَ كُلَّ المعاني، ونشتري بدمائهم أرخصَ مَا في الحياة.. قتلهم الإرهابيون مرة. ونحن نُصِرُّعلي أنْ نقتلهم في كل لحظة.

ألا يُدركون أن الزِيَّ العسكري علي جَسدي، حينَ تَشَرَّبَ الدماءَ لمْ يُفَرِّق بين طفلةٍ قُتِلَتْ بالخطأ، وبَيْنَ قائدي حِيْنَ حَمَلْتُهُم علي أكتافي؟... ألا يعلمونَ أنَّ لونَ الدَّمِ لا يتغيرُبزي صاحبِهِ؟

يوما ما ربما يُدرِكون.. حِيْنَ أُقْتَلُ، ويبدؤونَ في مَضْغِ جُثَتِي... عسى يُمَيّزُونَ طَعْمَ كُلِّ الضحايا في جسدي.. رُبَمَّا في تِلْكَ اللَّحْظَةِ يُدْرِكُونَ أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلَبُون.

******

يُرابِطُ في موقِعِهِ كعادتِهِ؛ تُخبره حَواسُّهُ المُدَرَّبَةُ أنَّ الوضعَ لا تَغَيُّرَ فِيهِ إلى الآن.. فلماذا إذن هذا الشُعَورُ الغريب الذي يَدْهَمهُ؟... يُحِسُّ أنَّ الأرضَ تَفرُّ من تحتِ قدميه. هل مات؟... لا؛ لمْ يَحِنْ أَوَانُهُ بَعْد. تأكَّدَ مِنْ ذلكَ حيَن شعرَ بالأرضِ مَرَّةً أُخرى عندما استلقى عليها. رُبَمَّا كانَ بعضُ الإجهادِ هو ما يمنعُهُ مِنَ الوقوفِ علي قدميه. وفي هَذِهِ اللحظةِ بالذَّات تَحَرَّكَتْ أمامَهُ قطعٌ مِنَ الليلِ. أشباحٌ هُلَامِيَّة... زملاء؟... أعداء؟... لا يَسْتَطِيعُ الإدراكَ بالضبطِ، ففي الظَّلَامِ تَتَسَاوى كُلُّ الأشكال. أمسكَ السلاحَ بقوةٍ... لن يُفْنُونا أبدًا.. لا... ليْسَ اليوم. أطلقَ الرَّصَاص؛ ولكِنْ لَمْ يَشْعُرْ بأيّ اهتزازٍ في سلاحِه، ولَمْ يَسْمَعْ أيّ دوي للطَلَقَات... تَحَيَّرَ عَقْلُهُ في تَفْسِيْرِ هذا الذي يَشْعُرُ به. هنا اطمئَنَّ أنَّهُ لَمْ يَمُتْ بَعْد... فرغمِ كُلِّ شيء؛ لَمْ تَنْكَشِفْ بَعد الحُجُبُ عَنْ أبصارِه.

(شخلوبة).

تبدت علامات التأفّف على الجميع حولها؛ وهم يحاولون دفعها عنهم أو الابتعاد عنها. لكن كل ما استطاعوا فعله هو حركات متشنّجة. لم يستطع أحد أن يحرر ذراعيه من تلاحم الأجساد في الفراغ الضيق للأتوبيس.. وهي كانت وسطهم تعاني مثل الجميع، وفوق ذلك تعاني من ثقل ما تحمل على رأسها، ومن انخفاض السقف، الذي اضطرها إلى أن تنكمش ليستوعبها الارتفاع هي وحملها.

امرأة كانت تبدو في الثلاثينات من عمرها.. ترتدي جلبابا قاتم اللون من قماش تبدو علي خامته التواضع.. تعصب رأسها بطرحة سوداء، عليها آثار طين وماء. كانت تحمل طبقًا معدِنيا متسعا، مغطى بخرق بالية متسخة، ترتجف من وقت لآخر بتأثير ما يحوي. تسمع من وقت لآخر أصوات طيور، تتضافر نغماتها حينا وكأنها تئن في جماعية مما تعاني من اختناق.. ترن ضربات أجنحتها أو رؤوسها حين تضرب جوانب الطبق كأنها تفضل الانتحار على الحبس. رفض السائق في غرور أن تضع حملها في الممر بين الكراسي حين دلفت للسيارة وهي تلهث. طالبها بدفع الأجرة أضعافا، فاعترضت في ذلة ومسكنة.

- احمدي ربنا. طبقك ده لوحده ياخد مكان خمس تنفار.

وهكذا اضطرها السائق أن تحمله فوق رأسها مخليا مكانا لمزيد من الركاب. وكلما وجد موطئا لقدم؛ ملأه بإنسان.. الجو الحار الخانق رغم اقترابنا من منتصف الليل، ملأ الوجوه بحبيبات من العرق اللزِج، تتهادى ببطء ثقيل فوق الوجوه وكأنها قطرات من الزيت، يعف الذباب حولها، ولا تملك الرؤوس لدفعه عنها إلا هزات يائسة أو زفرات حانقة. لم تشفع النوافذ المفتوحة فلم تدخل أي نسمة هواء. وكأنه انعدم من الوجود تاركا للصدور أن تتنفس فقط مزيجا من رائحة العرق ورائحة الطيور الخانقة.. كانت كل العيون تجلدها بنظرات لائمة حانقة. وكلما طلبنا من السائق الغوث والإسراع بالتحرك، عساه يحرر جمود الهواء من حولنا.. يأبى هازئا.

- لما تكمل العربية يا أساتذة.
- آه... ما هو أصل الطوب لما يترص يلزمه شوية أسمنت عشان يمسك في بعضه.
- هههههههه.

قهقهات متنافرة؛ تتشارك جميعها في شخشخة الصدر، صوت الشخير في نهايتها، وبصق البلاغم في المناديل. اكتفى السائق أخيرا بحمولته. أعلن بعد حمد الله والصلاة على نبيه مضاعفة الأجرة.. ورغم اعتراضنا مذكرين إياه بالأجرة الرسمية؛ أصر.

- خلاص يا عيني إنت وهو... اللي مش عاجبه ينزل يركب رسمي. آه... إحنا ما بنفرضش حاجة على حد.
- ننزل فين يا ابني... إنت آخر مواصلة موجودة.

- خلاص احمدوا ربنا... الحق علينا؟... إحنا بنرجع فاضيين.

نظر الركاب إلى بعضهم البعض في أسى.. قبل أن ترفع العيون إليه راياتها البيضاء.. لم يتحرك؛ ظل يجوس في الوجوه بناظريه، مفتشًا ربما عن أي علامات للثورة أو الاعتراض... أو ربما يستمتع باستسلامنا. اتجه إلى مقعد القيادة في خطوات متخايلة سَمِجة، وهو يدندن أحد الألحان الشعبية.. ليتحرك أخيرا. هكذا بدأنا.. وكنت أنا قد انتهيت.

كنت في المقعد الخلفي.. أعاني الصداع والتصدع من صوت ارتجاجات الزجاج المتشقق، طقطقة معدن الهيكل الخارجي.. أناته تشي بالتداعي وبأن ذراته ربما تتفكك في أي لحظة فيتلاشى من حولنا.. خصوصا مع رعونة السائق وتهوره.. لا تكاد أجسادنا تستقر في ميلانها إلى أحد الاتجاهات حتى يفاجئنا بانحرافه للآخر... فرامله العنيفة كلما اقتربت منه سيارة فيسبها مزيدا بما يفتح الله عليه من أصوات حلقية، أو إشارات خارجة... تحوله المفاجئ من وضع السكون إلى الحركة كلما توقف.. توشك السيارة أن تتحول علي يديه إلى حيوان الكانجرو.. والمرأة المسكينة تجاهد للحفاظ علي حملها من السقوط، متجنبة أن تضايق من حولها ما أمكنها.. حتى انفجرت في السائق صائحا:

- ما بالراحة يا أسطى.
- فيه إيه يا أخينا إنت؟
- اللي محمل بلاليص بيمشي علي مهله... وانت معاك أرواح.
- يا خويا سيبها علي الله... ولا إنت مش مؤمن؟

قام أحد الشباب فجأة من المقاعد الأمامية موضحا أنه يدرس العلوم الشرعية.. شرح في حماسة الفارق بين التوكل والتواكل.. وأمر الله بألا نلقي بأيدينا إلى التهلكة... وضرورة اتخاذ الحيطة والحذر، وسط انسجام جماهير الركاب والتي توجه إليها بالخطاب دون السائق.. السائق ما يزال على تهوره. رغم ما تشي به هزات رأسه من انسجام مع الحديث.. يمصمص شفتيه معتبرا:

- يا سلام!... حكم.

و ليصل في انسجامه إلى مداه؛ أشعل سيجارة منتفخة بعدما فرغ الشاب من خطبته.. نفث دخانها في تلذذ... شغل المسماع بأعتى درجات صوته.. وكأن الجدران حولنا ينقصها تزلزلا... موسيقى صادحة تشبه ضراط النائم... أشعر مع ضرباتها ورنينها، بأني سأقيء أحشائي الداخلية كاملة.. وصوت يصيح من حين لآخر أو بمعنى أصح.. يجعر:

- شخلوبة... شخلوبة.

والسائق يتابع الدندنة بصوته الأجش، يضرب المقود بيديه ضابطا الإيقاع، أو مخالفا طبقا لموسيقاه الداخلية. يتراقص بجسده، أحيانا يترك المقود ليصفق بيديه أو يطرقع بأصابعه.. من الركاب من تأفّف في صمت، أو تشاغل بهاتفه المحمول أو بحبيبته.. أحيانا تتجاوب مع السائق بعض السيارات من حولنا بأبواقها الزاعقة المهتاجة، أو بموسيقاها الصادحة هي الأخرى.

- من فوق الموج عدينا... وعمالنا البحر طحينة.

وسط الاندماج؛ حدث كل شيءٍ بسرعة... سمعنا شهقتها وصياح من حولها. نظرت؛ فوجدت حملها قد مال بزاوية خطيرة منذرا بالسقوط، إثر إحدى انحرافات السائق اللوذعية.. قام بعضهم من المقاعد محاولين السيطرة علي الوضع.. لكن هيهات.. انقلب الطبق على أحد المقاعد وفوق رأس الجالس فوقه، لتمرح الطيور في حرية.. تتقافز فوق الرؤوس والمقاعد بأقدامها العارية إلا من بقايا فضلاتها... ترفرف بأجنحتها في عنف فتنشر ريشها ورائحتها الخانقة في الأجواء.. تنضم أصواتها المتنافرة إلى سيمفونية الشخلوبة... ساد الهرج والكل يحاول الإمساك بها لكنها دافعت عن حريتها، بالنقر أحيانا، أو فرد الأجنحة بعنف في الوجوه مسببة سحجات وخدوش للبعض.. منها من قفز من النوافذ المفتوحة. والمرأة تولول.

أوقف السائق السيارة بحركة عنيفة وهو يسب –ولولا تلاصق الأجساد لحدث ما لا تحمد عقباه- إذ انسلت إحدى الطيور إلى الأمام، تتقافز على عجلة القيادة. أمسكها وألقاها بعنف من النافذة وهو يطلق صوتا خارجا.. نزل من مقعده.. دار حول السيارة كان بعض الركاب قد فتح الباب ونزلوا متدافعين، يجاهدون لالتقاط الأنفاس.

- إنتي اتحدفتي عليا من أنهي داهية؟

قالت وهي تنشِج:

- والنبي يا خويا... إلهي يسترك؛ غيتني ندور ع الطيور.

ثم وهي تولول:

- رزقي ورزق عيالي يا ناس.

تعاطف البعض معها. كنا قد أمسكنا بما تبقى من طيورها في السيارة. لكنهم لم يتعدوا ثلاث دجاجات.. ناولتها منديلا وأنا أقول للسائق:

- شوف لنا بطارية ولا كشاف ندور لها عليهم.

تجاوب معي البعض، والسائق ينظر لي شزرا.

- يعني يا خويا هندور ع المطاريد وسط الزراعات في العتمة دي؟!

صحت:

- خلي عندك شوية دم يا أسطى.

رد علي بصوت حلقي خارج، وتلفظ بلفظة خارجة:

- وديني اللي هيفضل؛ هسيب أمه هنا... إحنا ناقصين بلاوي.

صاحت إحدى الفتيات في تأفف:

- أنا عارفة سايبين اللي زيك يا ست إنتي إزاي أصلا؟

كانت ذات وجه ناحل وأنف طويل.. تتشكل على وجهها تضاريس من البثور تحاول إخفاءها تحت طبقات من الماكياج.. تلبس حجابًا للرأس فوق بلوزة ضيقة، تصف تضاريس جسدها بدقة مساح جيلوجي.. وإن كانت تتسع عن سروالها.. كانت تهز ساقها اليمنى في تبرم، تضع يدها اليمنى في وسطها، تنثر على نفسها بعضا من زجاجة عطر رخيص.

- بلاوي.

تقدم أحد الرجال بوجهه الممتلئ وشاربه المتضخم وقال في صوت عميق جهوري:

- إنتي يا ستي إنتي.. إزاي بتربي طيور في البيت؟... إنتي مش عارفة إنه ممنوع؟

قال السائق:

- قول لها يا أمين عثمان.

ارتجفت المرأة حين سمعته ينادي باسمه ورتبته. سألها مجددا:

- معاكي شهادة صحية يا ست إنتي؟... معاكي رخصة بالبيع؟
- آ... أنا.. أنا سريحة يا بيه.
- آه... طب بطاقتك.

أخرجتها من جيب داخلي في صدر جلبابها.. ناولته إياها بأصابع مرتجفة.. تفحصها في يديه، وهو يتفرس ملامحها بنظرة ذئب عجوز قبل أن يسأل فجأة:

- الفراخ دي بدارة؟

لم ينتظر إجابتها؛ مد يده يجس مؤخرات الدجاج القابع في استكانة عجيبة في الطبق.. ارتسمت على وجه الأمين علامات انتشاء غريب.

- إممم... دي لازم تتحرز يا أسطى وهاخدها معايا القسم.

رفع السائق يده إلى رأسه و كأنه يؤدي تحية عسكرية وقال في تزلف:

- باشا!... بس مش هينفع أوصلك وأرجع أوصلهم.. ما تآخذنيش.. الوقت وخري.
- ما لكش دعوة.. سيبنا هنا وامشي إنت... أنا هكلم القسم.
- باشا.

صفق السائق بيديه، اكتسب صوته صرامة فجأة وهو يشير إلى السيارة:

- يالا يا خويا منك له... بيتك بيتك.

صحت في غضب:

- بأي حق؟

نظر لي الأمين في مقت، قال في برود:

- وده إيه ده كمان إن شاء الله؟
- بقول لك بأي حق تاخدها؟

- آه... وسيادتك بقى اللي هتعرفني شغلي.. بطاقتك.

تقافز الغضب في عروقي. كدت أهجم عليه، لولا أن أمسكني رجل مسن من الركاب.. أمسكني بذراعين ترجفان وكأنها تخبرني بوهنه، ترجوني باستعطاف أن ألم الدور.. قال للأمين بلهجة هادئة:

- ما يقصدش، حقك عليا أنا ... ده زي ابنك.

- أدي اللي بناخده من شباب اليومين دول... جيل مش متربي.

أمن البعض علي كلامه بهز الرؤوس.. صرخت:

- أنا متربي غصب عنك.. إنت...

قاطعني المسن، وارتجافة يديه تزيد.. أحسستها تنقل دقات قلبه المتسارعة لذراعي حتى خشيت عليه، وأشفقت من صوته الواهن المذعور:

- ما يقصدش... شباب و انت عارف.

تدخل رجل آخر في الحديث:

- إنتم... ربنا يعينكم... آسفين يا باشا.
- عشان خاطر الراجل الطيب هسيبك يا حيلتها.

قالها الأمين بلهجة مستفزة، والمسن يدفعني إلى داخل السيارة وسط نظرات السائق الشامتة المنتشية.. قال لي المسن في غضب مكتوم:

- إنت اتجننت؟... عاوز تودي نفسك في داهية؟... شكلك ابن ناس مش وش بهدلة.

نظرت إليه في جمود ولم أدر بما أرد.. اصطف كل منا مجددا في مكانه. نثرت الفتاة عطرها لكنه لم يزل الرائحة من أجواء السيارة.. بل ربما أضاف إليها مزيدا من العطن.. عاد الناس إلى وجومهم وتأففهم، والسائق إلى شخلوبته... و أنا أنظر من الزجاج الخلفي إلى المرأة في مرارة، وهي تسير خلف الأمين منكسة الرأس. قبل أن يبتلعهما الظلام.

(أزمة خلاص).

-١-

انتهت الممرضة من إفراغ الدواء في زجاجة المحلول المعلقة.. تضبط معدل سريانه بدقة، وهي تنظر إلى جهاز مراقبة علاماتي الحيوية مرة، وأخرى إلى ساعتها. أوامر الطبيب كانت مشددة.. لا أحد يريد لجسدي أن يخوض صراعه مجددا من رد فعل تحسسي للدواء أو خلافه.. ستكون العواقب غير مأمونة هذه المرة. ألقت نظرة مدققة أخيرة قبل أن يبدو عليها الرضا. رفعت يدي في وهن أستوقفها قبل الخروج.. قلت بصوت خافت اضطرها أن تحني رأسها بالقرب من رأسي، لتلتقط أذنيها الأحرف:

- بالنسبة لطلبي...؟

هزت رأسها بلا معنى، وردت في لهجة محايدة:

- سأبلغ الطبيب.

أغلقت الباب وراءها، ليفتح بعد برهة.. أطل منه الوجه الريفي البسيط للجندي المسئول عن حراستي.. فحص الغرفة بناظريه قبل أن يغلقه مجددا. ما معنى هذا؟... هل يتوهمون بقدرة جسدي العاجز على الهرب؟... هل يخشوني لهذه الدرجة؟... لم إذن يحاولون الحفاظ علي حياتي؟... وإن كانت تهمهم بهذا القدر؛ فلم تسببوا في مجيئي إلى هنا من الأساس؟

-٢-

أتفرس ملامح وجهه في حيرة.. أحيانا تبدو مألوفة لي، وأخرى غريبة عني. بأمس وجدته فجأة في غرفتي.. لم يفعل أكثر من أن طالع جسدي بإشفاق، دون أن نتبادل الحديث.. لم أعرف من هو، ولم يتطوع هو بالإجابة. واليوم مجددا أراه أمامي... ملامحه الهادئة، شيبة رأسه الزاهية كزهرة القطن في إشراقها حين تتفتح وتنشرح لها صدور الفلاحين، حتى وإن كانت ثمرة مجهوداتهم لغيرهم.. أهذا هو سر ألفة ملامحه؟.. أشعروكأنها ملامح زمن أحن إليه؟.. مجددا أفتّش ذاكرتي عن وجهه فتهزأ بي... فاض بي، سألته، فرد في هدوء:

- أخوك فيما تعاني.

يسخر مني إذن.. جسده موفور الصحة، ربما لا يعكر صفو ملامحه إلا مسحة من حزن. قال وكأنما استشعر حيرتي:

- وهل تقتصر المعاناة علي الأجساد؟

- ماذا تريد إذن؟

تأمل وجهي بعض الوقت قبل أن يجيب في بطء:

- كيف تطلب ما لا تملك له طلبا؟

آه... هكذا إذن؟... سنبدأ المحاضرات الآن... واحد آخر من العلامات الزاخرة والبحار الوافرة... لا يمتلئون إلا بالتناقضات المتنافرة، يتوهمون تجاذبها، والأدهى يريدون منا أن نقتنع بها... حسنا ابدأ يا سيدي.. وانضم

للقطيع فهم كثر... كم امتلأت آفاق حياتي بأمثالك!.. من أنت لكي تحكم علي، أو أن تتدخل في حياتي؟... حياتي؛ التي أريد امتلاكها لأول مرة بمطلبي هذا.. أن أتحكم في مصيري.. أريد الخلاص من سجون الجسد و الروح... الآن لا أريد إلا الموت.

-٣-

(ذكرى):

صفي الأول الإعدادي؛ أستاذنا يغلف سماءنا بكلمات ساحرة البريق.. تضافرت مع نغمات صوته لتأسر الآذان.. عيوننا سجنت في حركات جسده وتحمسه.. يشرح معاني الجنة وخلودها، فسلسل أرواحنا في صورة يحاول كل منا تخيلها على قدرعقله واستيعابه.. حتى قطعت اللحن:

- ولن نمل، أستاذي؟

نهرني بحروف من نار –ترى أهكذا يكون غضب الجبار؟- تبعثرت الكلمات من فمي، أحاول لملمتها في ارتباك بائس:

- أعني.. آ... حياتنا للأبد.. نأكل ونشرب؟.. أقصد... فقط.. الملل... هل...

قاطعني ليعلمني، وعلمني بالفعل.. علمني عواقب الأسئلة. وليتني انتبهت يومها... ليتني انتبهت.

-٤-

مرة أخرى عاد.. ألم أطرده في المرة السابقة؟... بقدر ما سمحت طاقتي صحت به.. أنا ألهث:

- إليك عني.

لم يهتم.. رد في هدوء:

- أنت من طلبني.
- كاذب... لم أطلبك... ولا أريدك.

-٥-

ذكري:

- ألم تجد غير الفلسفة لدراستها؟

سألني صديقي الوحيد، من شاركني في صغري ادخار ما أمكننا من مصروفنا القليل لنقتني الكتب والرو ايات.

- وما المشكلة؟... أريد أن أعي و أفهم.
- لن تفتح أمامك إلا دروبا من الحيرة والعبث.
- بهذه البساطة؟

رفع صوته:

- وألعن.. هي ليست إلا الشطح والضلال.

هزأت بقوله:

- ما زلت في بداية دراستك للعلوم الشرعية، وها أنت تطلق الأحكام الكلية. ماذا عن الفلسفة الإسلامية إذن؟

رد في استنكار:

- و كأنك تقول: (الكفر الإسلامي)!... لا وجود لمصطلح كهذا من الأساس... من تسمونهم الفلاسفة المسلمين، لم يفعلوا أكثر مما يفعله البعض اليوم... استوردوها من بلاد الكفر، نزعوا سميتها، خففوها بتدجين عبارات إسلامية.

هززت رأسي بقوة ر افضا ما أسمع. صحت بدوري:

- ما هذا الهراء؟... وكأنها لم تكن وليدة بيئتها، ومحاولة لحل معضلاتها؟
- الحل نمتلكه.. لكننا من نعمى عنه.
- اسمعني جيدا... لا تعارض مطلقا بين الفلسفة والشريعة... فقط إن فكرت...
- صرخ في غضب:
- - قولا واحدا بين العلماء؛ هي ضد الشريعة.. انتهى.

-٦-

- فهل ترى في نفسك إذن فارقا يذكر عن من تكره؟

سألني من اعتدت ظهوره هذه الأيام.. حتى تقبلته كحقيقة في و اقعي.. دون أن أعيها، أو حتى أحاول تفسيرها. قلت في وجوم:

- على الأقل.. أنا قرأت.

- متأكد؟.. ربما لم تقرأ بما فيه الكفاية.

تسارعت النبضات علي جهاز المرقاب، وأطلق أزيزه المنذر... علامات غضبي هذه الأيام.. بعدما كبل العجز جسدي. مرة أخرى يحنقني، بهدوئه المستفز، وكأنه العليم بكل البواطن؛ وليخشع المريدون في حضرته.. ماذا يعرف هو عني؟... أو عن عمري الذي أفنيته بين السطور والأحبار، منقبا عن الحقيقة؟... ومن هو أصلا ليحدد معايير الكفاية؟... قلت في تحدٍ:

- قرأت من الكتب ما يحتاج لمجلدات لتدوين عناوينه.

رد في هدوء:

- ربما قُرِئ لك.

- ماذا تعني؟

- أعني... لم تبحث في عين الموضوع ذاته.. وقرأت بحوث غيرك... قرأت قراءاتهم... فأين قراءتك؟

-٧-

(ذكرى).

سلمني رئيس تحرير الجريدة التي أعمل بها مقالي، بعد مراجعته لأعيد كتابته.. طالعت الورقة التي ازدحمت بخطوط الشطب، متاهات من الأسهم المتشابكة تشير إلى مقترحات للتعديل.. كلمات متضافرة حينا.. متنافرة أحيانا.. لأجد المقال في النهاية كفقاعة الصابون المتضخمة، كلما نفختها انبثقت عنها فقاعات أخرى.. تساءلت في غضب:

- أين مقالي؟

رد في لهجة حاول أن تكون متعقلة وهو ينظر في عيني:

-أنت تعلم الظروف في هذه اللحظة.

- ماذا تبقى من الفكرة إذن بعد هذه التعديلات؟

تحدث مطولا عن إيمانه بي، وبدورنا التثقيفي.. أسهب بكلمات عامة فضفاضة ربما تصلح موضوعا إنشائيا في المدارس.

- لكن لا تنسى عقلية المتلقي.. الحكمة تقتضي الحذر في هذه الأنواء.

و... و... و...

كيف إذا يكتب القلم إذا خشي من نفسه؟... أيجعل من نفسه رقيبا علي نفسه، خوفا ممن يحترفون تشم الكلمات بحثا عن أوهامهم؟.. ما الحل إذن؟

- فلم تجد حلا لأزمتك الآن إلا بالموت والهرب؟

لم أرد.

- أهذا هو الخلاص من وجهة نظرك؟

لم أرد.

- إذن... ربما كانت أزمتك من نفسك لنفسك.

- لم يعد يهم.

- كيف؟... ما زلت تحيا.

صحت في حنق:

- أي حياة؟... الآن أنا سجين الجسد.. أم لا تستطيع الرؤية؟

- ماذا عن الروح إذن؟

بسخرية قلت:

- أي روح؟

- هي نسمة الخالق ونفسه... كفى بها من نعمة.

- ولم يجد لتكريمها إلا دفنها في الطين؟!... ألم يجد لإبراز قدرته وعظمته غير هذا العالم المزري البائس؟

فقط نظر لي ولم يرد.. هل نظرته هذه تعني الشفقة؟... أو تحمل الشماتة في من ظن بقدرته على تحرير الروح... فأصبح الآن أسير الجسد أيضا؟.. أو نظرة التدبر والعظة؟ ربما صرت أنا الآخر حكاية على المنابر، يملؤها كيف شاءوا بالبهار.. ضايقني صمته، صحت به:

- هيا، قلها.. لا تتردد: حكمته!... أليس كذلك؟... كلما عجزنا عن الفهم، أرجعنا الأمر إلى الحكمة العلوية المقدسة.. والتي لا تدرك، ولا يسئل عنها.

هز رأسه وقال بنفس الهدوء:

- لم أقل هذا ولن أقول.. لم أتهمك بشيء ولن أفعل... لكن دع ما لا يُدْرَكْ... وأَدْرِكْ ما لا يُتْرَكْ... ما زال لديك العقل.
- أي عقل؟... مخنوق الأنفاس الآن.
- فلا تكن خناقا له أنت الآخر.
- من أنت؟

وبكل هدوءه رد:

- ألم تعرفني بعد؟

(ذكرى).

(معلق أنا في مشانق الصباح...).

إحساس سخيف مُزْرٍ، من العجز و القهر.. ألا تملك إرادتك... معلق في الفضاء الخانق للسرداب الحقير للمعتقل... لا شيء يقيم كياني في الفراغ إلا السلاسل المشدودة من أطرافي لجدرانه.. كالكرة الأرضية المعلقة في فضاء معلق في فضاءات ور ائه... أهكذا الإنسان في الحياة، معلق بغير إرادته؟... والزبانية يتوالون على جسدي انتهاكا... بسياطهم مرة ومرات أخرى بالنار.

(أبدلناهم جلودا غيرها...).

ترى هل يتمنون هذه المقدرة الآن ليطيلوا عذابنا فتزيد نشوتهم... كنا جميعا معتقلين هنا.. بتهم مختلفة.. منها المضحك، ومنها المزري... كان الجميع هنا... من آمن بالأوهام ، ومن لفظها.. في النهاية اشتركنا جميعا في تهمة واحدة: محاولة زعزعة استقرار عرش الرب.. رب الأمن والاستقرار.. رب فرض علينا بغير إرادتنا، حتى وإن اخترناه.. كل الخديعة أن تختار ما حلمت به دوما، لتجد داخله الكوابيس تلطمك من كل اتجاه.. هل نُدمن الوهم إلى هذه الدرجة فنعمى عن المؤشرات؟... أم نحترف تشويه الأحلام؟

- مقالك الأخير يا فندي...

الضابط المنتفخ المزهو بقدرته على تعذيب الضعفاء.. المنتشي بأمان عدم القدرة على الرد.. أي رجولة تلك؟

- عاوزين تضيعوا البلد يا ولاد ال...

السدنة في كل مكان وكل مجال.. من يمتلكون الحقيقة دائما في أيديهم كالمطاط. تتسع لتحوي كل التشكيلات، وتضيق لتخنق في لحظات أخرى.. أقف أمامه الآن منهكا من التعذيب.. أقف بغير إرادتي أيضا.. يسندني بعض زبانيته. وكأنها إهانة للباشا إن تركوني أسقط تحت قدميه... كل ما استطعت قوله وسط طوفان العصبية من حولي:

- ما تهمتي؟

تنهال علي اللكمات والركلات.. الكل تحمس ليبرز إخلاصه.. للوطن؟.. أم للباشا؟

- مش عارف تهمتك يا ع...

صرخت بما تبقى في من قوة:

- لا أعرف... لم أعد أعرف شيئا في هذا العبث... حقا لا أعرف.. وهو يقيني الحالي. لكنهم أيضا كانوا يمتلكون يقينهم ليدافعوا عنه... فلتذهب أنت ويقينك إلى الجحيم... وإن أعيانا محاربته.. فلنفني جسدك، وإن لم نستطع فلندفعك لتنهي المهمة بديلا عنا، وهو الأيسر.

هل هذا هو بداية طريق الخلاص إذن؟... أن أعترف الآن بأني لا أعرف، وأن أبدأ من جديد؟.. أضعت عمري لأصل إلى هذه الحقيقة.. فكم عمرا إذن أحتاج لكي أعرف؟... ناهيك عن اليقين... لا أنكر أن نقاشاته معي في الأيام السابقة وإن أغضبتني قد فتحت أمامي أفاقا جديدة.. يانعة شهية، يتوق عقلي لتذوقها.. أكان هذا هو خطئي في النهاية؟... أن افترضت أن العقل يشبع.. كنت أنا أيضا من السدنة على نفسي.. أخطأت إذ توهمت أنا الآخر أن للحقيقة سقفا لا يجوز تخطيه... حاربت المثل بالمثل... رفضت فرض آرائهم بفرض آرائي... كم كنت أقاتل في المعارك الخاطئة.. نجحوا في إبعادي عن السبيل.. لأبدأ الآن من جديد، ولأقنع بأنه لا وصول... الوصول يعني نهاية السبيل، وهو ممتد لا يُحَدّ... يحيط بأفقي ولا يُحَاط... لا حقيقة مطلقة أبدا... إلا المو (وهو نفي للحياة فلتكن لها الأولوية إذن).

تحاملت على نفسي وعجزي لأضغط زر استدعاء الممرضة.. جاءت علي عجل، تهللت ما أن رأتني:

- حمدا لله علي سلامتك.

غريب!.. لكن لا وقت لهذا الهراء.. لن أشغل عقلي بعد الآن فيما لا طائل منه.. الآن لا أريد إلا الكتب والأوراق.. طلبت منها أيضا أن تأتي به إليّ.. حفرت الحيرة أخاديدها في وجهها.

- المريض.. الذي داوم علي زيارتي في الأيام الأخيرة.

وكأني أخاطب الخلاء، فلا يرد حتى بالصدى.. المشكلة أني لا أعرفه.. لا أعرف في أي غرفة هو، ولا حتى في أي قسم يعالج.. لم أعرف منه إلا الأفكار.. ارتسمت على وجهها نظرة غريبة، قالت وهي تتراجع:

- لم يزرك أحد منذ جئت... الو اقع أنك... آ... كنت فاقدا للوعي، ولم تستيقظ إلا الآن.

(تحقيق صحفي حول الحدث).

تقول بأنك صحفي؟.. حسنا إذن!.. ماذا تريد أن تعرف عن الحدث؟.. وهل من الضروري لكل حدث أن يخبرك لم حدث؟.. وما نفع الأسئلة من الأساس؟.. هي لا تحيب إلا بمزيد من الأسئلة، كالأطفال الأشقياء يصدعون رؤوسنا ليل نهار.. انضج يا سيدي وكن في حكمة الكبار العارفين، من اهتدوا للحقيقة وجوهرها، لاكوها بكل الطرق وهضموا أخيرا أنه لا فائدة.. وليكن فيما حدث عبرة لك.. ففي النهاية توحد مصير الجميع صغارا وكبارا، من أدمنوا الأسئلة ومن لفظوها.. اقتنصهم الموت في النهاية.. وهل في الموت يسئل كيف ولم؟.. هو كل الحقيقة وكفى.. اخشع يا سيدي.

ما يدرينا نحن بما دار في رؤوسهم في اللحظات الأخيرة؟.. من نحن لنخرق الغيب بعين الخيال؟.. يقيننا الدائم فيما حدث بعد، أما ما قبل فلم يخولنا لها الله.. ربما ملأ الصغار الأجواء بأهازيجهم الطفولية، والضحكات المرحة البريئة. كالعصافير لا تسمع الوجود إلا الأغاريد.. كالفراشات ترسم في تهاديها بين الزهور لوحة ربيعية خلابة.. لا ندري!.. هل كانوا يتفاخرون علي بعضهم البعض بدرجاتهم المدرسية، وسط هزات رؤوس الأهل في رضا؟.. هل كان يلمع وقتها في أعين الكبار ما حرموا منه من أحلام؟.. هل وضع ولد مثلا زهرة في شعر فتاة بيد مرتجفة وعين مضطربة تحاذر أعين الأهل وتتوقى غضبهم؟.. أو كانوا يصخبون في عبث لاه وسط زجرات الأهل؟.. هل ناموا في أحضان الكبار؟.. وكيف هدأت أحلامهم وسط قلق الكبار وعصف

أفكارهم؟.. يووووه.. قلنا لك يا سيدي كبارنا لم يعودوا يفكرون، لم يجهدون أنفسهم وكل الإجابات جاهزة هناك منذ الأزل. وها قد عبروا البرزخ، هنيئا لهم وعقبى لنا.

إليك ما نعرفه يقينا من وقائع: كنا نعمل في حقولنا كعادتنا في صباح لم يتميز عن سابقيه من صباحات معتادة، حين ميزنا السيارة الميكروباص البيضاء.. نعرفها ونعرف سائقا جيدا، ونعرف كفاحه على والدته وإخوته الصغار بعد أبيهم الطيب رحمه الله. كانت السيارة مصدر دخله الوحيد، ينقل الركاب أو البضائع من قريتنا للمدينة وبالعكس نظير المال.. كانت السيارة ملاذا لكل مسن أو مريض وربما دون مقابل.. يرحمه الله! كم كنا نعيش حياتنا في وجهه، كان السّبّاق دائما إلى المشاركة في أفراحنا ومصائبنا.. كان العاقل الحكيم وقت جنوننا، لم نعرف منه غير الابتسام يذيب أعتى الخصام.. كان بيننا كالأحلام والتي لا يصدق وجودها إلا حين نستيقظ منها، فتصطلي النفس مرارة فقدها، تستجدي لمحات مما كان، فلا ترد إلا بمزيد من الغياب.. أرجوك يا سيدي.. دع نبش الذكريات، فقلوبنا لم تعد تحتوي علي المخبوء من الكنوز والدرر. ليست الآن إلا الكهوف المعتمة لا يسكنها إلا الوطاويط، وربما الجان. خرائبا تحيا في العراء إن ألححت عليها بالنداء فلا ترد إلا بالعواء.. أرجوك يا سيدي.

تصر مجددا علي العودة إلى اللحظات الأخيرة!.. هل انتبه الجميع وقتها للخطر الداني منهم؟.. أو كان كل منهم مثقلا بما هو كائن؟.. شغلته عوالمه الخاصة عن أي وجود، غطت أصواتهم الداخلية عن صوت القطار القادم؟..

لا ندري!.. ما نعرفه أننا اعتدنا مروره مرور العمر على شريطه الأوحد الموازي لحقولنا. اعتدناه صغارا نلهو وكبارا نكدح. يمر، وربما منذ الأزل.. وحش أسطوري فليزأر وليهز الأرض من تحت أقدامنا كيف شاء.. لا نهتم. طالما كان هناك بعيدا عنا لا نقربه، ولا يقربنا. وهذا يا سيدي أعتى درجات الأمان. وفي ظله لم نرفع رؤوسنا، لم نبصر فلن ندرك.. وفر أسئلتك يا سيدي، لسنا من رجالات التحري الذين ملؤوا قريتنا بعد الحادث يستجوبوننا في عصبية.

من نحن لنرد عليهم؟.. مجددا لم نرفع رؤوسنا لنعرف!.. ربما رفعت مواشينا رؤوسها فعلا خوارها.. نذيرا، جزعا، أم غضبا؟.. لا نعرف تماما. لم نعتد من قبل التدقيق في اختلافات التفاصيل.. اعتدنا أن نحيا الإطار العام للصورة، ربما كانت حياتنا مجموعة من المشاهد الكبيرة تنتقل بينها الكاميرات فنحياها بما يليق بها كالممثلين الكبار.. لذا انتقلنا من سكون العادة والاعتياد إلى الجزع والفزع حين حدث الارتطام.. عدم التصديق أإن ما بقي منهم كومات مسحوقة من اللّحم والعظام، تغطى بخرق بالية متسخة وعليها بقع متسعة من الدماء.. يقيننا الآن أنه القدر يا سيدي، وفي الأقدار لا تفيد الأنظار حتى وإن لم تعمَ... فإلى مشهد جديد نستودعك الله.. ولا تبتئس.. ربما كتبت مقالك من جملة واحدة فقط، لتكن هي العنوان والمتن: ما حدث قد حدث.. انتهى.

(يا صباح الخير يا اللي معانا).

لا أرى أمامي إلا الغبار، ولا شيء غيره.. يلف آفاقي ويخنقها.. يلهب العيون مجبرًا إيّاي أن أفركها مسببا مزيدًا من الالتهاب والدموع.. تعجز المناديل الورقية المعطرة الموضوعة أمامي علي لوحة قيادة سيارتي أن ترقأها، أو أن تحيط بما يسيل من أنفي بفعله.. توحّشت ذراته وتركتني ضحية معركته مع الهواء، فلم يجد الصدر بدًّا من السعال المتواصل.

– أكان لا بد أن نذهب هذا اليوم؟

أقولها محنقًا لزوجتي الجالسة بجواري في السيارة.. مطتْ شفتيها تبرمًا دون أن تجيب.. كان صباحًا ربيعيا، لكننا لم نعرف من أي ربيع في بلادنا إلّا رياحًا من الرمال مختلفة الألوان، رمد العيون، حساسية الصدور، وحالات الأزمات الربوية التي تزدحم بها المشافي.. نفس الأعراض والنظرات الزائغة الراجية الغوث في كل العيون، الصدور التي تجاهد لالتقاط الهواء، ونفس العجز الدائم في الأدوية. من الوحدات الصحية في الريف إلى المشافي الكبيرة في المدن. ربما كان الاختلاف الوحيد هو ألوان حوائط المنشآت أو السيراميك. منذ كنت طبيبا ريفيا حتى رأست القسم بالمستشفى.

(وماذا فعلت أنت لتغير الأوضاع؟).. أقولها لنفسي ساخرًا.. لا شيء إلا الانزواء ولعن الظروف. أين الحماسة التي بدأت منذ دخول الكلية؟.. وعودي لأبي أن أجعلها وسيلة للخدمة لا غاية؟.. أين كل الأحلام وما تبقى منها الآن؟.. أكانت الظروف أقوى منك، أم أنت من أدمن دفء الاستكانة والاستسلام؟..

عزائي الوحيد أنّي حاولت ربما، لكن هل يكفي؟.. حين تقابل أبيك هناك في الجانب الآخر؛ أيكون هذا هو دفاعك؟.. أيكفي لمجابهة نظراته المؤنبة؟.. أتذكر تلك النظرة؟.. حين رآك تدخن لأول مرة؟.. النظرة التي تقول لك بوضوح (خاب أملي بك.).. وقتها، وددت لو يجلدك بالنار ليرحمك من نيرانها.

- احترس!

صاحت زوجتي في جزع، لأنتبه فجأة إلى السيارة المسرعة القادمة من الاتجاه المقابل.. أدرت المقود لا إراديا لأتجاوزها بالكاد.. توقفنا علي جانب الطريق الضيق الملتوي، وربما توقف معنا الزمان.. لا صوت يسمع إلا لهاثنا، لا تتحرك فينا إلا الأعين تحمل نفس الحوار الدائر بيننا في الأيام الأخيرة، أنا بنفس الرجاء وهي بنفس التصميم. التفت إليها مكررا:

- أكان لا بد هذا الصباح؟

- لقد اقتربنا، فلنكمل.

قالتها بلهجتها المعتادة في كل قراراتها، قوية لا يلمس منها التردد. اعتادت دائما أن تستمع لوجهة نظري المعارضة ومبرراتي في هدوء، لترد بهدوء أشد: "وماذا بعد؟" فيتهاوى كل منطقي ويعيدني إلى أرض الواقع.. واقعي الذي لم يتحمل أحلامي أو هي التي لم تتحمله.. وماذا أفدت من الأحلام سيادتك؟.. دائما ما كنت تقول أنها الدافع للوجود، فإذ بوجودك اليوم ينحني تحت ثقلها ليبطئ حركتك حتى الشلل. أفق!.. أنت لست (أطلس) الذي يحمل الكرة الأرضية على كتفيه.. أنت تحمل فقط هموم بيتك

وأولادك.. والآن، لم ترقَ حتى لتصير (سيزيف) إنما أصبحت أنت الصخرة تتدحرج صعودا وهبوطا بلا طائل.. ولكن الصخرة لا تمتلك الشعور.. فكيف السبيل لقتل كل شعورك لتكمل مسيرة العبث، حتى تأمر الآلهة بالتوقف؟

بدأت تلوح قريتنا بشجرتها العتيقة في مدخلها. وربما كانت هي الشيء الوحيد الذي لم يتغير، وسط البنايات الخراسانية والتي تعتليها أطباق اللو اقط الفضائية. بعض البيوت ترى قطرها أقل من قطر اللّاقط فوقها.. الأسلاك المتشابكة المتقاطعة كممرات المتاهات، أو شباك العنكبوت تخنق أشعة الشمس.. أسلاك الهو اتف، الكهرباء، الشبكة العنكبوتية، أو أسلاك التقاط المحطات الفضائية.. نفس المشهد دائما لا يختلف عن آخر مرة للزيارة، إلا بزيادة عدد الحجرات الضيقة التي يحولها أصحابها إلى حو انيت بواجهات زجاجية.. فوقها لافتات مضيئة تحمل عناوين أجنبية بعربية ركيكة.. (سوبر ماركت.. هايبر.. مول...).. في قريتنا!.. وتلحق بالأسماء مختلف الصفات الحميدة (الشرف.. الأمانة.. الوفاء...).. وهكذا، إذا أردت الأخلاق في هذا الزمن؛ عليك باللافتات البر اقة.

اجتازت السيارة الشوارع الترابية الضيقة بصعوبة، وقلبي ينتفض بين ضلوعي. أريد أن أخرج من هذا المستنقع لأصل إلى مهبط السلام لروحي.. البقعة الهادئة علي أطراف قريتنا والتي يقع فيها منزل العائلة.. استقبلتني البو ابة المعدنية العتيقة.. طلمبة المياه التي غارت من زمن، واعتلاها الصدأ والريم مشكلا لوحة سيريالية قبيحة.. الحديقة الصغيرة التي كانت تحوي أشجار العنب، صغارا نلهو تحتها، نأكل ثمار اليوسفي ونفرك قشرها في رؤوس

بعضنا البعض والأهل حولنا يحتسون الشاي أو يدخنون. المساحة التي احتوت أفراحنا وأتراحنا، تفرش بالسجاد الرخيص وتمتلئ بالكراسي الخشبية في الأفراح والمآتم.. أصبحت اليوم أحراشا لندرة العناية بها.. المنزل بطوابقه الثلاث، وطلائه الحديث الذي لم يفلح في إخفاء الشقوق الممتدة في أرجائه تتلوى كالأفاعي.. الملاط الذي غيرته مرارا وسط اعتراضات زوجتي، اهترأ وترك مكانه في بعض المواضع وتكسر.. تثبت حالته الآن وجهة نظرها عن جدوى الترقيع.. ربما كانت محقة.. لا أمتلك الثمن اللازم لبناء المنزل من جديد، فلم أنفق ما يتبقى لدي من مال.. -بعد متطلبات الحياة والتي تتوحش في كل مرة- على تجديد لا يفيد؟

لم أتمسك به لهذه الدرجة؟.. هيا تخل عنه ككل أحلامك وبعه.. مم تخشى؟.. نظرة الملام في عيون والدك والتي زارتك كلما غفوت لماما في الليالي السابقة؟.. أم أطلال الذكريات؟.. في هذه الصالة كنا نفترش الحصير للإفطار والراديو العتيق يصدح بصوت الست (يا صباح الخير يا اللي معانا.. الكروان غنى وصحانا).. أين الكروان الآن يا ست؟.. اليوم لا ينعق إلا الغربان والبوم، حتى خجل الكروان أن ينطق... ما هذا الذي يعتريني الآن؟.. أشعر أني أريد الانقضاض على الملاط لأنتزعه حتى أصل إلى الأرض البكر العارية من تحته، أتلمس آثار قبقاب الجد المبتل كلما خرج من الحمام.. أن أنهش طبقات الطلاء لأصل لأثار أيدينا الصغيرة، حين كنا نغمسها في دماء الذبائح ونرسم بها على الجدران.. أريد أن أصرخ: أين هذا الآن؟.. أيها المنزل العتيق أفرغ ما في جوفك من ذكريات وجسدها أمامي، أحيها لأحيا.. يا للحنين!.. ويا لبؤسك!

إلام تتوسل؟.. أفق من سكرتك.. ماذا جرى لك يا دكتور؟.. أين ذهبت عقليتك العلمية؟.. أغربت هي الأخرى فيما غرب؟.. أتؤمن بهذه الترهات؟.. الموتى لا يعودون ولا يمتلكون القدرة علي الإيذاء الجسدي أو النفسي. وحين يأتي أجلك، بالتأكيد لن ترى الوالد هناك ممسكا بالعصا!.. واجه الو اقع.. ما مضى قد انتهى ولن يعود زمنا ولا أشخاصا.. والآتي، كل الشواهد الحالية تخبر باستحالة قدومه.. إذن بعه واجنِ بعض المال ليعينك علي المقاومة وأن تحيا الآني.

فجأة، رأيته منزويا في أحد الأركان المظلمة.. كيف لم أنتبه إليه من قبل؟.. الراديو العتيق ما زال موجودا.. ألم أبعه مع ما بيع من تحف و أنتيكات؟.. فيم كنت أفكر بالضبط؟.. هل ارتأيته قطعة ديكورية مناسبة؟.. أي تناسب؟.. الآن هو ككهل عجوز يرتدي أثمال الشحاذين وينام على الأرصفة بإعاقته.. أستمع شارد الذهن إلى ثرثرات المقاول و أنا أرنو الراديو بين الشفقة والسخرية.. إيه أيها العجوز!.. شهدت مولدي واليوم تشهد على غيابي واغترابي.. وفي كل الأحوال كما أنت لا تتحرك.. لا عليك، كم تحركنا نحن بلا جدوى.. ربما لم نتحرك من الأساس وأوهمنا أنفسنا... إلام تنظر؟.. أتشمت بي؟.. أم ترجوني أن آخذك معي بعد بيع البيت؟.. وهل يمثل فارقا وجودك هنا أو هناك؟

تسللت بعض من أشعة الشمس على استحياء من النو افذ، لتبرز لي ملامحه أكثر فأكثر.. لم أدرِ ماذا حدث لي وقتها.. سرت إليه كالمسحور مسلوب الإرادة، وكأنني محمول على أثير نغماته التي طالما بثّها.. لم أحفل باندهاش

المقاول، ولا نداءات زوجتي.. أنا الآن في حضرته.. أمرر يدي برفق علي سطحه الخشبي الذي اهترأت قشرته في مواضع عدة، وكأنني أواسي صديقا قديما.. بحثت في لهفة عن قابسه ووضعته في مخرج الكهرباء.. ركعت إلى جواره أطلب الصفح والغفران، لكنه لم يبد أي استجابة.. ناجيته راجيا.. أعلم أنه خطئي وهذا عقابي المستحق، التجاهل كما تجاهلت.. لكني أعلن التوبة بين يديك فانطق بالله عليك.. بلا جدوى.. أدق عليه بقبضتي جزعا وكأنني أمارس الإنعاش القلبي لمريض بلا فائدة.. أصرخ في غضب وأنا أركله: بالله عليك انطق، لا تخرس أنت الآخر.. حرر الجمود من حولي.. لينتفض جسدي على اهتزازات وخروَشات تخرج منه.. وبصوت واهن كالأنين، كشهقة الغريق حين ينقذوه فيتمتم في ضعف.. كان صوت الست يشدو: (يا صباح الخير يا اللي معانا).

(رشفات على الهامش).

على نارٍ هادئة -كما علّمه والده- يضع القهوة.. لا تزال نصائحه منقوشة في وجدانه، رغم مرور الزمن.

«لا تسقط جلّ الماء على البن دفعة واحدة، دعه يتشبع رويدا رويدا، تعانق الذرات بعضها البعض في هدوء، قلبها على مهل.. حنانيك!.. هي الأميرة و أنت الفارس يجول في حناياها، لا تعامل الأميرات معاملة العوام أبدا.. هي ملكة المشروبات المتوجة، تأسر ولا تؤسر.. هل تدرك ما تمثّل لعشّاقها؟.. تأثير سحائبها على العقل؟.. لحظات الخلق الجديدة حين تلامس ثناياه، وتفني تلبّد سمائه، فينهمر الاسترخاء. كن على قدرها، لا تعجل.. لكل حرفة يا ولدي ميزان وتوازن، فاضبطه واصطبر، حتى وإن غضب الزبائن».

يراقب بدء تشكل زغب الرغوة على الجوانب، تجعّد وجهها، انبلاج العروق الخفيفة علي سطحه، كممرات مائية تحيي التربة.. الزهرة البرية تبدأ في التورد، يستمع لموسيقى نشيجها. علمته خبرته كيف يقرأ اختلاجاتها، ويفرق بين لحظات الشبع والعطش للنار، يصطفي اللحظة المناسبة لرفعها، تهدأ قليلا فيعيد الكرّة.. أتقن المداعبة بمرور السنين، حتى بات يعرف يقينا متى تصل إلى ذروة نضوجها، يلمسه بالعيون والأنف، حين يتصاعد عبقها.. صار الرّاهب في محرابها، تعلم كيف يتلقى علامات وحيها، فينقله للمريدين.

اعتاد كصاحب للمقهى، أن يقضي نهاره بين الجلوس على مكتبه المهيمن على رؤية الطاولات، أو أن يجول بينها منقبًّا عن عشاقٍ جدد..

نمت فراسته في اكتشاف الغثّ والثّمين من زبائنه.. بخبرة بائع الجواهر الحاذق ينتقي فصوصه النادرة، يميز بين من يدرك قدسية الطقس فأتى المعبد خاشعا، ومن أتى بحكم التقليد.. الصنف الأخير بالذّات أصبح يميزه من نظرة واحدة، يبتسم له ابتسامة محايدة، ويشير إلى أحد صبيانه لِيُعِدَّ له القهوة، لن يشغل باله به.. هو لم يكن يوما قاسيا، لكنه لا يُقَدِّر من لا يُقَدِّر فنه، هكذا ببساطة؛ ولن يهدر طاقته في جدالات عقيمة.

«كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه».. مثل شعبي طالما هزئ به، لكنه اليوم بعد هذا العمر، يدرك مدى مصداقيته.. أن تنقل البحر إلى الصحراء بواسطة برّادٍ للشّاي، أهون من أن تقنع أحدهم بتغيير طبعه أو أفكاره.. حسنا!.. فليحتسِ أمثال هؤلاء الكيروسين إن أرادوا، ألم يقبلوا بسلطان اعتياد الرّديء وشرعيته؟.. يجزعون إذا ما لوّح لهم بالغياب، فارتموا تحت أقدامه يستجدونه البقاء.. فليخنقوا آفاقهم كيف شَاؤوا، لن يشغل باله بهم.. هو يبغي المريدين. لكنهم كفّوا عن المجيء منذ زمن.

غالبية زبائنه اليوم دائما متعجلون، يهرولون وراء مالا يدرك، يثرثرون في لا شيء، ويطلبون أي شيء.. لا يهم إن قدم لهم في فنجان، كوب ورقي، أو حتى في إناء فخاري.. المهم.. أن يحتوي ما يلقى في الجوف سريعا، كحمل ثقيل يطرح عن الأكتاف في حنق. لا يلتفتون للشاشة الضخمة في ركن المقهى، ولا يهتمون بما تعرض.. فيلما كان، أغاني؛ أو حتى ملاسناتٍ سواء كانت آراءً سياسية، أم دينية، أم حتى تفاضلا بين الرّاقصات. لم يعد هذا زمن الاهتمام بشيء، صار الشغف نوعا من أنواع الترف.. أعانه الله على هذه

النّهارات البائسة، وليبدأ فجره مع حلول المساء. حينما يأتيه البقية الباقية، من ندامى القهوة.

(حسين).. ناظر سابق لإحدى المدارس الابتدائية، على المعاش حاليا.. نديمه منذ أيام "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة".. تعددت المعارك وهو كما هو، برأسه الضخم الأصلع، وشاربه العريض.. وكأنه احتبس في إطار صورته من أيام بدء تعيينه في الحكومة، يمازحه دائما:

- لا ينقصك غير الطربوش!

(علي).. محام وناشط حقوقي، أصغرهما سنا، لم يتخطَّ الأربعين من عمره.. تعرف عليه في زمن ليس ببعيد، حين كان المقهى يعج بالثائرين في الميدان القريب.. وقتها، التقى أناسا من مختلف الأعمار، لم يصدق يوما وجود أمثالهم في البلاد. عادت ملامح زمن كان المقهى فيه يعجّ بقرع الخطب والأشعار، وعادت للقهوة مكانتها، كحرف الرّوي للقصيد، والرّشفات تتضافر مع النقاش، فتصبح أنغامها جزءًا لا يتجزّأ من الحديث. يتذكّر الأجواء الحماسية إذ يرى الأحلام تكاد تتجسّد أمامه، إن هي إلّا سويعات وتلمس باليدين.. كل الأجواء كانت تخبر بهذا.. لكن! تمددت تلك السّويعات وتوحّشت، ابتلعتهم دوّاماتها.

وهكذا لم يبقَ له غيرهما، لم يبقَ لهم إلا مناقشة ما كان. يقول في مرارة:

- الوضع الآن، كقهوة أعدّت على عجل، فترسّبت خلاصتها في القاع، وطفا على السطح سائل لا طعم له.

يعارضه علي:

- لا بأس، الأمل موجود طالما لم تختفِ، فلنبرزها من مكامنها، ونزيح ما يطمرها.

يهز حسين رأسه نافيا:

- ربما بدت لك وقتها ملامح منها، لكنها بالتأكيد ليست هي.

يبتسم صاحب المقهى ويضيف في هدوء:

- هنا، لا بد وأن تبدأ من جديد.. على نار هادئة.

يصيح علي:

- الثورة ليست كالقهوة، هي تعني الغليان، ولا بد من فعل قريب.

رغم إعجاب الكهلين يبتسمان في إشفاق، يتساءلان بالعيون: ترى كم يلزم هذا الشاب لينزوي مثلنا على الهامش، قانعا بمضغ مرارة الأيام مع القهوة؟.. كم استلزمنا نحن من وقت؟.. أحيانا، يشعران أنهما اقتنصا دون أن يشعرا، من الزمن الثوري، وألقيا في زمن الاستكانة.. قائد أوركسترا قدير، هبط بالأنغام من أعلى طبقات الجواب إلى أدنى القرار، بحركة بارعة استحسنها الجمهور، فأمطروه بصيحات الإعجاب والتصفيق.. وإن تساءل أحدهم عمّا حدث، أغرقوه لوما وتقريعا.

مسح دمعة طفرت من عينه وهو يتذكر.. إيه يا قلب!.. تهدمت ممالك الأحلام، تنام الآن رثّ الثياب على أطلالها، كسروا لك

الناي فلم تعد تنشد حتى الأنين.. القحط يغرس راياته في كل البساتين.. لم يعد ينبت داخلنا إلّا حسك اليأس، يزحف في الأوردة كنبات اللبلاب، يخنق كل الخلايا.. فنتيه في الدغل بلا دليل.. وماذا بعد؟.. مسح دمعته مجددا، أعاد انتباهه إلى القهوة.. يوم جديد ككل الأيام السابقة، ولنرَ مخاض الأيام.

لفت نظره فجأة أن الشاشة تعرض صورة (علي)!.. كمرشح محتمل للرئاسة!.. لم يهتم بسخرية الزبائن، ولأول مرة منذ مدة طويلة، تابع الأخبار.. برامج حوارية طيلة النهار تناقش الموضوع.. وجوه محتقنة، يتطاير اللعاب من أفواهها، تتهم (علي) بالخيانة والعمالة، حتى شك في جنسية (علي) من الأساس.. تصرخ إحدى المذيعات، بصوت حاد لم يخفِ أصوات اهتزازات مجوهراتها، مع حركات جسدها المتشنجة:

- البلد تضيع!
- و أين البلاد الآن؟

تساءل في سخرية.. الغريب أن (علي) لم يذكر لهم نيته من قبل.. يتلمس الأخبار من المحطات المختلفة، عن بدء تجميعه للتوقيعات.. يشرق بعض النور في قلبه.. هل يمكن؟.. أو تراه حلما هو الآخر نغرق في أوهامه. ظلّ يقرص ذراعيه، وكلما تألم كلما اتسعت ابتسامته.. لم يصدق أنّه لم تمت فيه الحماسة بعد، لم يهتم أن يسأل أين اختفت؟.. المهم أنّها هلّت من جديد.

طار إلى محل إعداد القهوة؛ استعدادًا لليلة ميلاد جديد، يعدها الآن بروحه.. ماؤها من أوردته، حبيباتها من خلاياه، وتقلبها نضات القلب.. رنين الملعقة في الكنكة المعدنية، وكأنه يزغرد.. وضعها كالعادة على نار هادئة، وعقله يشتعل بالأسئلة واللهفة.. حتى سمع فجأة من التلفاز أحدهم يصيح في انتصار، وهو يبرز ورقة ما:

- هذه شهادة ميلاد السيد المرشح الأصلية، توضح أن اسمه (علية)!.. وهكذا لا يحق له التّرشح.

والمذيع يؤكد خبر القبض عليه/ ها، للتحقيق معه/ ها، بتهمة التزوير.. مؤكدا أنّ الشعب لا يمكن أن يستغفله أحدهم/ هن...

ولأول مرة منذ بدأ صاحب القهوة مهنته.. فارت القهوة.

(لحظة).

ترتعد يدها إذ تتحسس آثار صفعته، يولد التماس تيارا كهربيا ينتفض لها كيانها كله، تشعر يدها أنها تجوس داخل غابة من نتوءات صخرية في صحراء جرداء، لكنها لا تفوق وحشة روحها!.. تطالعها علامات الأصابع القانية في المرآة كألسنة نيران نشوى بلحظات الالتهام وتطالب بالمزيد، لا تطفئها دموعها، فكأنها كانت تبكي حمما بركانية، لا تلطفها حتى لمسات يد رضيعها الناعمة وهي تداعب خدها كما اعتاد..

تتسع عيونه الصغيرة وكأنه يريد أن يحتويها بداخله، يسألها عمّ ألمّ بها، فينزعج لانعدام مقدرته على ذلك!.. تتسع مجددا وكأنه يطلب تأكيد هويتها أنها من اعتادت تلاطفه، فينفجر بالبكاء إذ طال انتظاره المستجدي بلا طائل.. تضمه لصدرها حتى ليوشك الجسدان أن يندمجا، يد تلاطف وأخرى تُهدهد، لم تدر أتواسيه أم تلتمس منه الأمان!.. يعوي نبض القلبين بعدما تصادمت أعاصيرهما، غلفت سماءهما سحب الهمّ، فانهمرت دموعهما..

لكل نهاية بداية، قد تشبهها وتشي بها، ويعمى عنها القلب!.. أو تخالفها بالكلية، فيشتعل العقل بالتساؤلات عن المآل وتبدل الأحوال!.. الواقع أنها لم يدر بخلدها في لحظة من اللحظات أن يصفعها زوجها!.. فلا تلك أخلاقه ولا هي تستحق -من وجهة نظرها على الأقل-.. جميلة، ذات مستوى اجتماعي وثقافي لا يستهان به، وفوق هذا إيمانها به، حاربت واقعها لتظفر به: أهلها الذين رأوه متواضع الأصل لا يليق بنبل الأميرة، صديقاتها واندهاشهن

الفائر، حتى وساوس نفسها لم تتركه لحاله في بعض الأوقات!.. تصدت للجميع بحسم واستجابت لنداء القلب..

ومن جانبه، لم يخيب رجاءها، اجتهد في عمله كثيرا، لم يلتفت للحياة وملذاتها، انشغل ببناء نفسه لأجلها.. لم يلتفت لكلمات الأهل بعد الزواج، والتي وإن اصطبغت بطلاءات منمقة وديعة، كانت تحوي فيما بينها جوارحَ تنهش، ورصاصات تجرح في برود، وألعن من هذا ما كان يقال بالعيون فيقتل في صمت!.. كان يحفزه دائما نداء نفسه له: "لتستحقها"..

كيف وصلا إلى هذه اللحظة إذن؟.. الآن، تطالعه في صالون منزل والدها الفاخر، والوالد يتحدث عن إجراءات ما بعد الطلاق، لكم تغير عن أول مرة جاء إلى هنا يطلب يدها، ارتباكه وقتها، نظراته الخجولة، محاولاته الثبات أمام هيبة والدها.. ما زالت تذكر تلك اللحظة بتفاصيلها، ما زالت تذكر بدلته المكوية بعناية فائقة، ساعته المذهبة، عطره الفاغم!.. حكى لها فيما بعد في إحدى أمسياتهم الهادئة بعد الزواج كم كلفه التأنق يومها من ثروة عانى آثارها لفترة، فقبلته وقالت: "روحك أغنى، وأغلى ما في وجودي".. وانسابا مع نهر من السعادة والصفاء ليلتها، أتراه يتذكر الآن؟

والدها يتحدث في لهجته الجافة عن حقوقها.. أي حقوق؟.. هي لا تريد إلا حقا واحدا، أن يعود رجلها الذي عشقته بكل كيانها، أن تغمرهما مجددا لحظة الخلق الأولى حين التقيا، لكن ما يفيد التغني بالماضي الآن؟.. وحتى إذا عاد، كيف تغفر له صفعته؟.. رباه!.. كيف وصلا إلى هذه اللحظة؟..

أما عن زوجها فرغم ثباته الخارجي، كان البركان يثور تحت السطح، يسأل نفسه هو الآخر في تعجب دون أن يهتدي لأي إجابة!.. كان لا يمتلك من دنياه إلا عينيها، يراها في يقظته ومنامه، يعيش علي همساتها، رآها نسمة الحياة بدونها يفنى، فكيف وصلا إلى هذه اللحظة؟

أكان حبه وهما في النهاية؟.. تماهى مع حالة أرادها عشقا!.. ألأنها كانت تجربته النسائية الأولى، حملها كل ما حلم به يوما، فانهارت به؟.. بمعنى آخر أراد أن يحب فصادف أن كانت هي من في الدرب؟.. لا يدري!..

التقت نظراتهما عفوا وهو يرد على الوالد في ثبات، لم تستطع أن تمنع نفسها من الإعجاب بتغير شخصيته، ففي النهاية هي من صنعته، لكن أيكون هذا هو الجزاء في النهاية؟.. أبعد سنوات الارتباط التي أسفرت عن أولادهما الأربعة، وازدهار عمله حتى امتلك إمبراطوريته الخاصة؟..

لولا أنها تعلم أخلاقه جيدا، لقالت أنها نزوة مع إحداهن!.. تسخر من الفكرة، تراجع كل لحظاتهما في ذهنها بحثا عن السبب، فلا تهتدي!.. تكاد تجن، لا بد وأن هناك سببا ما، النار من مستصغر الشرر، فهل عميا عن شرارات في مروجهما؟.. هل بدأت دون أن تعي تعامله كتمثال من صنعها، وككل متقن لصنعته يحيطها بالسياجات، حتى ضاق؟.. كيف وصلا إلى هذه اللحظة؟

يسأل نفسه: "ما فائدة المملكة التي بناها، إن خلا عرشها من الملكة؟".. أراد في لحظات التقاء الأعين أن ينقب عما افتقد، عن أي لمحة مما كان، لكن هاله ما في عينيها من جمود!.. ما الذي حدث؟.. هل وصلا إلى درجة

من اكتمال العشق، وكعادة الحياة ما أن يصل شيء إلى تمامه إلا وبدأ سريعا في اكمال نقصانه؟.. هل كان وقود الحب هو الكفاح، والآن بعد استقرار الأحوال خمد المحرك؟.. أم هو شعور بالدونية أمامها؟.. وأين كان هذا الشعور حين عشقها وهو معدم؟.. الأولى ألا يكون له وجود الآن!..

هي لحظة ما، تسللت إلى و اقعهما دون أن يدريا، تنامت دون أن يعيا، فابتلعت كل اللحظات!.. وصلا إلى هذه اللحظة من التشظي، ويا لها من لحظة!.. هي لحظة ما بعد الحريق وانعدام الهواء، فلم يبق إلا الهشيم والاختناق، يتملك النفس قنوطا من العثور على أي ازدهار، الآن حلق كل منهما يغرق في غصته، رايات الصمت ترفرف على أنقاض ممالكهما المهدمة، وماذا يقولان إن نطقا؟.. أيعتذران؟.. فمن يبدأ؟.. وعلام؟.. لا يتكلم الآن إلا الأب بلهجة يشعران جليدها يزحف داخل الأوردة، الآن صار القلب مطحنة لتكسير الجليد لا مضخة للدم، ربما تحركت فقط أعينهما، قد تلتقي من حين لآخر، ربما يبحثان عن لحظة تكسر كل هذا الجمود، تحرر أسر و اقعهما من التشظي، لحظة ينتظر كل منهما أن يبدأها الآخر!

(إسعاف عاجل)

يا له من وضع!.. تسألني دموع عينها الحل، تجيبها عيوني بالحيرة والحسرة؛ تدفن وجهها في صدر زوجها الممدد أمامنا وهي تنشِج.. ألتفت للمسعف بجواري فأجده يضرب رأسه المطرق بكفيه في عصبية، تلتقي عينانا فهز رأسه في أسى. أجس نبض زوجها مراقبا علاماته الحيوية على مرقاب عربة الإسعاف، حالته تسوء!.. إن لم نتحرك سريعا فقدناه..

يفتح الباب الجانبي المنزلق للعربة، ليدخل السائق ومعه الرياح الباردة وعواؤها بين الجبال، تنتثر حبيبات المطر في عنف قبل أن يغلقه السائق سريعا وهو يرتجف، يسأله المسعف في لهفة:

- التقطت أي إرسال؟

فيجيبه من بين لهاثه المضطرب، وهو يكاد يبكي:

- لا أمل.. ضعنا!.. ضعنا!

تصرخ الزوجة:

- والعمل؟.. تصرف يا دكتور!

تلتفت العيون إلى في لهفة.. ماذا أفعل؟.. أنا المنوط بي تقديم الحلول، أجدني عاجزا عن التفكير في ظل الوضع المزري الذي وصلنا إليه!.. نحن الآن في طريق ناءٍ بلا وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، داخل سيارة

إسعاف معطلة!.. جثة خامدة تحتوي على خمس أرواح إحداها تنازع، قبر بارد فكم جثة سيضم في النهاية؟

صوت ارتطام حبيبات المطر والبَرَد، ضربات الرعد، بكاء الزوجة؛ تحطم الأعصاب المهمة أصلا. أتركهم داخل العربة دون حتى أن أطمئن على المريض!.. لا فارق الآن.. أضم ياقتي معطفي اتقاء لصفعات الريح، لا أرى ما أمامي من ظلام إلا بضع لحظات خاطفة حين يسطع البرق، كأضواء كاميرات تصوير عملاقة!.. و أين الكاميرات التي أغرقتنا في المشفى صباحا الآن؟!..

كان يوما وكأنه كتب بريشة نسّاخ عن سابقيه من الأيام!.. لا جديد في المشفى الحدودي الذي أعمل به، في أقصى الجنوب. العجيب، أننا في هذه البلدة السياحية لا نمارس الطب إلا كأطباء القرون الوسطى، حيث نستعيض عن نقص الإمكانيات بالصلاة والدعاء بجوار المرضى!.. هالني الوضع في بداية تسلمي للعمل، فكم كنت أغضب، أثور، أحاول ما أمكنني إصلاح الأوضاع.. فماذا جنيت من ثورتي؟.. اضطهاد المديرين على اختلافهم، لم تتغير التصرفات بتغير شخصياتهم!.. وكأن الكرسي هو من يحكم ويقرر!.. وهكذا، توالت الصدامات والجزاءات.. لم يجرؤوا هم على رفدي، ولا أنا جرؤت على الاستقالة، وكأنني آخذ دوري مطمئنا على المسرح أنا الآخر!

كان يوما روتينيا حتى تسلمنا الإشارة بالاستعداد لاستقبال ضحايا انقلاب سيارة سياحية: خمسة أجانب، والسائق المحلي!.. ليتحول فجأة مشفانا المتواضع إلى بؤرة مشتعلة، توالى علينا الصحفيون والمراسلون، تصدر المشفى شرائط الأخبار في التلفاز!.. قياداتنا، من كنا نستجديهم بضع

لحظات ليستمعوا إلينا، يلتفتون إلى احتياجاتنا؛ أمطرونا بالاتصالات المتوترة تتقصى التقارير!.. مديرنا المنتفخ الأوداج أمام الكاميرات، يبشر بالسلامة ويشيد بالإجراءات الطبية العالمية!.. أي إجراءات سيادتك؟!.. إننا لم نفعل أكثر من إسعافات أولية بسيطة، ربما كان من الأجدى أن تتم في مكان الحادث.. ألم يأمر الوزير بنقل الأجانب بمروحيات الإسعاف الطائر إلى مشافي القاهرة؟.. رغم أن حالاتهم من بسيطة إلى متوسطة، والحالة الأفدح هي حالة السائق!.. هو الأولى بالنقل كما قلت للمدير ليرد في عصبية:

- بعد نقل الأجانب.
- حالته لن تتحمل الانتظار!
- الأوامر صريحة، الأولوية لنقل الأجانب، ضع صورة البلد في اعتبارك!

لا فائدة!.. كل ما استطعت فعله هو أن جاهدت لنقله سريعا بواسطة سيارة للإسعاف، في طريق لا يتحمل مشاقه من يسلكه في رحلة استجمام، فما بالنا بمريض في النزع الأخير!.. وها نحن ذا.. يا له من وضع!

أطالع السماء المكفهرّة وقلبي ينتفض كالغبار في مهب الرياح، أنا لست بموسى، ولا في سيناء ليكلمني الله، لكني لا أمتلك إلا أن أناجيه آملا أن ننقذ مما نحن فيه.. همس الرجاء يشق الغيوم، يخترق الأكوان، هو السميع العليم، أقرب إلينا من حبل الوريد، لن أحتاج للصراخ ليصله صوتي.. كم صرخت لقادتنا دون جدوى!.. وإذا استمعوا، فبالإجابة يبخلون!.. وإن أجابوا، فأقل من النزر اليسير!.. أعجز الآن حتى عن إشعال سجائري لأبتلع مع أنفاسها ما يحدث حولي كما اعتدت!

أيام صارت جنين البعض من بعض، مثل انتساخ الفضاء.. سكناه أشباح!.. كم من هذا السائق رأيت موتهم بعينيك في السابق؟.. دون أن تمتلك القدرة على المنع، وكل تدخلاتك كانت فقط لإسبال العيون!.. ألم تعتد الموت بعد يا دكتور؟.. وفر محاولاتك العقيمة للإسعاف. من أنت لتراوغ ملك الموت إذا ما قرر؟.. ومن أنا أيضا لأقرر أن هذه هي ساعة الأجل؟.. ألم ترَ شحوب الوجه، خفتت الأنفاس حين عدت إلى السيارة؟.. ألم تستشعر نبضه الواهن؟.. بلى، لكن طالما ما يزال هناك بقية من روح فلن أفقد الأمل.. اتركه لقدره.. لست الإله لأقرر ذلك، ربما استمرأ البعض لعب دوره في أحيان كثيرة، لكن ليس أنا.. لأنك لا تجرؤ يا دكتور!

تنازعني وساوس نفسي دون أن أمتلك لها دفعا، كما لا أملك أن أكف عن محاولاتي للإسعاف وسط صرخات الزوجة الملتاعة وبكاء السائق، لا أمتلك إلا هذا!.. أراقب زحف البرودة على الجسد، زرقة الشفاه كوحش بدأ في الاستيقاظ ليلتهم باقي الوجه، تتسرب روحه في تؤدة ووقار، بحكمة من يمتلك كل الوقت بين يديه، ويثق في أن النهاية آتية لا ريب.. وأنا لا أمتلك إلا المحاولات والانتظار لعل وعسى!.. وهل بأيدينا شيء آخر الآن؟.. لم يعد أمامنا من سبيل للتقدم، ولا نمتلك إمكانية حتى للعودة، يا له من وضع!

(قصة سخيفة)!

رفع ذراعه القوية المكبلة بسلسلة حديدية ضخمة إلى جدار الكهف... يده تمسك قدح الخمر... يلقيه في جوفه دفعة واحدة... تجشّأ... رفع القدح عاليا صائحا في عبث:

- نخب البطولة.

لم أصدق ما أراه أمامي... أهذا هو هرقل العظيم... بطل الأوليمب ابن كبير الآلهة؟... كيف وصل إلى هذه الدرجة؟... .يرفع يده الأخرى المسلسلة للجدار أيضا... يمسح بها فمه... أتساءل.. فيم كان يفكر من قيدوه؟... ألا تكفي قيود الخمر علي روحه وعقله؟

يستعيد ذهني كل بطولاته التي طالما تغني بها الشعراء... ..حكاياه التي كانت تستفزنا وتثيرنا حين نسمعها من فم الغواني في الحانات... قاهر المستحيلات استحال الآن إلى لا شيء!... هذا هو المستحيل بعينه.

يقول بتثاقل السكارى وتخبط كلماتهم:

- كما ترى... زيوس... آه...

يكملها بغطيط ثقيل... كصوت تنين يغط في قعر بئر... أهز جسده الضخم فلا يستجيب... أحيانا أسأله في لحظات إفاقته القليلة:

- ألست ابن زيوس كبير الآلهة؟

ينظر لي في حيرة ويجيب:

- ربما لم يكن يحبني.

أرد عليه نافيا:

- لا... بالتأكيد هو يحبك كابن من صلبه... ربما هدهدك في يوم من الأيام... وكنت نور عينيه.

قال في حسرة:

- وهل تعرف الآلهة الحب؟... هي تعبث في الأعلى في مجلس الأوليمب تتصارع وتغذى صراعاتنا على الأرض.

أجادله فلا يقتنع... يقول وسط تجشؤاته:

- زيوس... كيف أصبح كبير الآلهة بر أيك؟

- بالتأكيد استحقها حين صارعهم و...

يقاطعني بأن يرفع يديه في تثاقل أمام وجهي... يترنم... بصوت مُترنّح ثقيل الحروف... في البداية ينشد أناشيدَ حزينة... ثم يبتهل للآلهة... ويختمها بأغانٍ عابثة داعرة... لا، لن أفقد الأمل... سأعيده إلى مكانته... أحدثه يصمت طويلا ثم ينظر لي بعينين فارغتين... يسأل:

- من أنت؟

- أنا...

يشيح بيديه في وجهي:

- طظ.

يجرع كأسه ويكمل:

- إن أردت الحكايات... عليك بالحانات... تجد الشعراء يمجدون كبير الآلهة... ويلعنون وجودي.

يعود إلى غطيطه... وأنا لا أستسلم... تمر الأيام علي إصراري... أناقشه ما وجدت الفرصة لذلك... أشعر أحيانا أنه بدأ يميل إلى الاقتناع... فيرفع إصبعه ويفتح فمه... ثم تتهاوى رأسه مجددا... ترى ماذا كان ليقول؟... وفي النهاية أثمرت مجهوداتي بحل وسطي... اقتنعنا أخيرا نحن الاثنين... يا له من انتصار!.. تخيل معي الآن... هرقل الأسطوري الجبار... بطل الأوليمب... يصبح بطلا لكوميكسات ساخرة على الفيس بوك... تحفيلا على الزمالك!

(محمد ميخائيل)

(مدد يا سيدي محمد ميخائيل... مدد).

مِنْ فَضْلِكْ!... احتفظْ بعقلِكَ داخلَ رأسِكْ.. فأنت لم تُخْطِئْ قراءَةَ العبارةِ... ففي بلدتي أهلُ الطريقةِ يقودهم الشيخُ الأعْمَى؛ وَمِنْ وَرَائِهِمْ؛ أهلُ البلدةِ؛ ليلَ نهارٍ يرددونَ: مدد يا سيدي محمد ميخائيل مدد. أمَّا عَنْ مَنْ هو محمد ميخائيل؛ وما هذهِ الهالةُ القدسيةُ التي يَتَمَتَّعُ بها؟... فَلِهَذا قصة.

إنَّ أيّ بلدةُ اعتدْتَ عليها في و اقعِكَ؛ أو حتى في مُخَيِّلَتِكَ.. لا بُدَّ لها من أن تحتضنَ أو يَحُدُهَا؛ رُبَّمَا جبلُ... نهُر... ترعةُ.. أما بَلْدَتَنَا فلا يَحُدُّها إلا العراءُ.. جزيرةٌ في محيطٍ من الخلاءِ.. رأسُ مالِهَا أشعارُ العجائزِ... وحَكَايا النساءِ.

في البدءِ كانتْ الكلمةْ.. بَدَأَ الأمرُ إذن بِحُبِ الحَكَايَا.. ففي يومٍ مِنَ الأيَّامِ؛ وبعدَ إقامةِ شعيرةٍ من الشعائرِ؛ سَرَتْ في الناسِ كتيارٍ كَهْرَبِيّ مَقُولَةُ: ادعموا محمد ميخائيل... كلنا محمد ميخائيل. على ألسنةِ الناسِ، في البدايةِ علي استحياءِ؛ ثم في أوراقٍ تُوَزَّعُ في تجمعاتِ أهلِ البلدةِ؛ حتى في وسائلِ الميديا و التواصل الاجتماعي. فجأةً... صارَ فراغُ بلدتِنَا مملوءًا بـ(محمد ميخائيل)... وأصبحنا محطةً لِمَنْ يُرِيْدُ مناقشةَ الموضوعِ؛ مِنَ الدَّاخِلِ؛ أو حتى مِنَ الخارجِ.

قِيْلَ: هو مُضْطَهَدُ في عقيدتِهِ فتحول إلى الأخرى.. قِيْلَ: بل أُجْبِرَ علي أَنْ يتحوَّلَ للأخرى؛ فتنازعَ المدافعونَ. قِيْلَ: ليسَ لهُ وجود.. ما لَكُمْ كيفَ

تحكمون؟!.. قيل: بل هو كُلُّ الوجودِ أفلا تعقلون؟!... وأنا أطاردُ كل الخُيُوطِ؛ أَتَحَسَّسُهَا إلى آخرِ امتداداتِهَا؛ فَأَصِلُ في النهايةِ إلى نفسِ الفراغِ.

كنتُ أَسْعَى دائمًا للبحثِ عن الحقيقةِ.. أُحِبُّ للصورةِ أن تكتملَ؛ وترابطَ؛ كَلُعْبَةِ البازل التي يُجِيْدُهَا الأطفالُ.. لَكِنِّي اليومَ أعي شُعُورَ المَلَّاحِ الذي فَقَدَ دَّفَتُه؛ في ليلةٍ غائمةٍ؛ في رحلتهِ لمُطَارَدَةِ الهُلَامِ.

قِيْلَ: إليكَ الوقائِعُ؛ فَتَقَبَّلَهَا حقيقةً.. قُلْتُ: إنَّمَا أَبْغَي البَرْزَخَ بينَ الأمرينِ.. الوَهْمِ؛ والحقيقةِ؛ فَلَا يْبغِيَان... رَبَّاهُ!... أيُعْقَلُ للوهمِ أَنْ يصيرَ حقيقيًا؛ أو أَنَّ الحقيقةَ الوهميةِ تَبْتَلِعُ كُلَّ العقولِ؟... قِيْلَ: إذا اكْتَمَلَتْ أركانُهَا... فقلتُ: أَيَّهَا؟!... قِيْلَ: فَاسْأَلْ حُرَّاسَهَا.. قَصَدْتُ السَّدَنَةَ فَي كُلِّ عيد... فَعُدْتُ بالوَعْدِ... وبالوَعِيْد.

قَرَّرْتُ أَنَّهُ إَنْ لَمْ يَكُنْ هناكَ سبيلٌ لِتَحَرِّي الحقائقِ؛ إذن فلنْ أُجْهِدَ العقلَ في ملاحِمٍ عَبَثِيَّةٍ.. فَلْأَكُنْ إذن المبصرَ الأعمى، الفصيحَ الأخرسَ بإرادتِهِ.. حتى وجدتني في يومٍ من الأيامِ.. أُرِدِّدُ معَ الجموعِ: (مدد يا سيدي محمد ميخائيل مدد).

الكاتب في سطور

الاسم: محمد عبد المنعم علي محمد.

الجنسية: مصري.

السن: ٣٣

المهنة: أخصائي جراحة عظام.

إيميل: dr.sha3er@yahoo.com

فيسبوك:

https://www.facebook.com/DR.MaHaMaDeLmAhAnKaR

الأعمال المنشورة:

قصص قصيرة في إصدارات مجمعة، معرض القاهرة للكتاب ٢٠١٨:

- قصة (حيرة).. مجموعة (المنفيون إلى جوار السحاب).. المكتبة العربية للنشر.
- قصة (محطة واحدة).. مجموعة (أوركسترا).. دار الدرويش.
- قصة (المعرض).. مجموعة (على حافة السرد).. دار جولدن بوك.
- قصة (يا ابني..).. مجموعة (رتوش إبداعية).. دار إبداع للجميع.. إصدار إليكتروني.

لي عدة مشاركات في روابط ومجموعات أدبية للقصة القصيرة والومضة، حصلت على المركز الأول في مسابقة رابطة فن القصة القصيرة شهري ديسمبر ٢٠١٧ عن قصة (أزمة خلاص)، ومارس ٢٠١٨ عن قصة (لحظة).

الفهرس

حيرة	٥
المعرض	٩
محطة واحدة	١٧
يا ابني	٢١
كمين	٢٧
شخلوبة	٣٣
أزمة خلاص	٤٣
تحقيق صحفي حول الحدث	٥٧
يا صباح الخيريالي معانا	٦١
رشفات على الهامش	٦٧
لحظة	٧٣
اسعاف عاجل	٧٧
قصة سخيفة	٨١
محمد ميخائيل	٨٥

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017